المحور العاشر

بين زكى نجيب محمود وعاطف العراقى (*)

مقالات ودراسات وخطابات وذكريات بقلم : عاطف العراقى

(*) يمكن الرجوع إلى كتابنا : «رائد التنوير زكى نجيب محمود - ذكرياتى الفلسفية والأدبية مع المفكر والإنسان» ، وكتابنا : «ثورة النقد فى عالم الأدب والفلسفة والسياسة» ، وكتابنا «البحث عن المعقول فى الثقافة العربية» ، وكتابنا : «العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر» بالإضافة إلى مئات المقالات التى كتبتها عن زكى نجيب محمود أثناء حياته وبعد وفاته .

(١) زكى نجيب محمود ورسالته الخالدة

عاطف العراقى

أعتقد اعتقاداً لا يخالجنى فيه أدنى شك ، بأن الدكتور زكى نجيب محمود يُعَدُّ هرمنا الثقافى الخالد . وأنه يمثل المنارة الفكرية التى يجب أن يهتدى بها كل مثقف فى هذا الزمان. لقد بذل جهداً من النادر أن نجد إنساناً عربيًّا قام به . لقد ترك بين أيدينا رسالة خالدة موجهة إلى جميع الناس فى كل زمان وكل مكان . وكل سطر كتبه مفكرنا العملاق فى أى كتاب من كتبه إنما يصلح تماماً لأن يكون دستوراً فكريًّا لنا نحن العرب ، وإن كان أكثرهم لا يعلمون .

غيرُ مُجْدٍ فى مِلَّتى و اعتقادى : التغافل عن الرسالة التى بثَّها فينا هرمنا الفكرى زكى نجيب. إنها رسالة خالدة سيقدر لها البقاء . رسالة كتبها بحروف من نار ونور ينبغى علينا معشر المثقفين أن نتوقف عند كل كلمة من كلمات تلك الرسالة وما أعظمها وما أروعها . إنها رسالة لم يكتبها رائدنا الشامخ فى آلاف مؤلفة من الصفحات لكى توضع فى زوايا النسيان والإهمال ، بل إنها رسالة ينبغى أن تظل محفورة فى عقولنا ووجداننا ما بقيت حياة على هذا الكوكب الذى نعيش عليه .

لن يستطيع أحد من الناس أن يؤرخ للفكر فى عالمنا العربى المعاصر ، بل فى عالمنا كله شرقاً وغرباً ، إلا بأن يضع فى اعتباره الدور البارز لزكى نجيب محمود . لقد شق طريقه وسط الأشواك والصخور . كان وما يزال حريصاً على إعلاء كلمة الحق والالتزام بالعقل والعلم . لقد دخل تاريخ الفكر العالمى من أوسع الأبواب وأرحبها . وإذا كان كل زائر لمصر يضع فى اعتباره أنه من الضرورى أن يزور الأهرامات وأبا الهول ، فإن هذا ينطبق تماماً على زكى نجيب محمود، فالجميع يسعى أيضاً إلى زيارته والتحدث معه . عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه تبحث فى حقيقة فكر رائدنا ومعلِّمنا . آلاف الصفحات يكتبها المثقفون عن زكى نجيب محمود. إن من حقنا أن نفخر بأننا نعيش فى عصر زكى نجيب محمود ، من حقنا كمصريين أن نتباهى بين الأمم ونقول إن من أقوى الدلائل على عظمة مصر الفكرية أنها أنجبت لنا مفكراً من النادر أن نجد له مثيلاً . أنجبت لنا زكى نجيب محمود .

لقد قدَّم لنا زكى نجيب عشرات الكتب التى تبين لنا وظيفة الفكر وهدف التفكير ، إنه يقول فى أول سطر من سطور كتابه الممتاز «مجتمع جديد أو الكارثة» : ليس الفكر ترفاً يلهو به أصحابه ، كما يلهو بالكلمات المتقاطعة رجل أراد أن يقتل فراغه ، بل إن الفكر مرتبط بالمشكلات التى يحياها الناس حياة يكتنفها العناء فيريدون لها حلاً حتى تصفو لهم المشارب. وبمقدار ما نجد الفكرة على صلة عضوية وثيقة بإحدى تلك المشكلات ، نقول إنها فكرة بمعنى الكلمة .

إن من يقف متأملاً عند هذه العبارة يتبين له تماماً الفرق بين المثقفين وأشباه المثقفين . يتبين له تماماً أن كل من يتحدثون الآن عن أيديولوجيات فكرية وينسبون إلى أنفسهم أنهم أصحاب مشروعات حضارية ، إنما يكشف حديثهم عن كلمات لا يفهمونها هم أنفسهم . يكشف حديثهم عن تخلف عقلى وتلوث خُلُقى . إنك تحسبهم من المثقفين وما هم بالمثقفين، بل أشباه مثقفين ، ولكن ماذا نفعل أمام طبول الدعاية الجوفاء ؟ !

الفكر -إذن- له وظيفته المحددة . يقول زكى نجيب محمود فى كتابه «المنطق الوضعى» : أنا مؤمن بالعلم كافر بهذا اللغو الذى لا يجدى على أصحابه ولا على الناس شيئاً . وعندى أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية بقدر ما تأخذ بنصيب من العلم ومنهجه .

نعم إن رسالة زكى نجيب محمود تعد رسالة لم تكتب إلا لكى تبقى على مر العصور والأجيال وهل يمكن أن ننسى قضيته الكبرى التى أخلص لها إخلاصاً لا نجده عند أى مفكر عربى فى عالمنا من مشرقه إلى مغربه ، إنها قضية الأصالة والمعاصرة . لقد ذكر لى فى لقاء تم بيننا ، أن تفكيره فى المزج بين الثقافة العربية والثقافة الغربية بدأ منذ عام ١٩٥٦م ، ثم صاغ الفكرة عام ١٩٦٠ م ، لكن فى أى كتاب ؟ إنه كتاب «الشرق الفنان» . لقد أثنى توفيق الحكيم على هذا الكتاب ثناء بغير حدود وبين لنا أننا لو كنا نعيش فى مجتمع النمل المنظم والمتعاون لكنا قد استفدنا من أفكار زكى نجيب محمود البناءة ، ولكننا للأسف الشديد نعيش فى مجتمع الصراصير المفكَّك وليس فى عالم النمل .

هل يمكن أن نتغافل عن «تجديد الفكر العربى» ، «المعقول واللامعقول» ، «ثقافتنا فى مواجهة العصر» ، «عربى بين ثقافتين» ، «بذور وجذور» ، «نحو فلسفة علمية» وغيرها من عشرات الكتب الحافلة بكم هائل من الأفكار العظيمة والبناءة والجريئة . إنها أفكار ينبغى أن نقف عندها لدراستها وتحليلها . أفكار بدونها لا يمكن تصوُّر دور للفكر أو للثقافة فى عالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه .

لقد دعانا زكى نجيب محمود إلى ضرورة التعرف على أفكار الآخرين حتى ندخل فى حوار معهم . لم يقل أنها أفكار هدامة ، كتلك الأفكار التى تدور حول ما يسمى بالغزو الثقافى ، تدور حول الهجوم على الغرب ومنجزاته . لقد بيَّن لنا أن تلك الأفكار والدعوات إنما تعد زائفة ولا مجال لها فى وصف الغرب ومنجزاته .

لقد بيَّن أن تلك الأفكار والدعوات ، إنما تُعَدُّ زائفة ولا مجال لها ونحن نعيش فى عصر العلم . وكان إقدام معلِّمنا ورائدنا زكى نجيب على ترجمة عشرات الكتب البالغة الأهمية إنما يعد تنبيهاً لنا بأن نهتم بأفكار الآخرين ، بحيث لا يمكن أن نتصور إنساناً مثقفاً بدون الاطلاع على الفكر الغربى وخاصة أن كتب التراث لا نجد فيها حلولاً لأكثر مشكلاتنا المعاصرة . كتب التراث - فيما نقول - قد نجد فيها كمًّا هائلاً من الخرافات التى تزيد على عدد سكان الدول العربية .

وما أروع ذكاء الدكتور زكى نجيب محمود حين يتحدث فى كتابه «هموم المثقفين» عن ثقافة الإنسان العربى ويبين لنا أهمية الموروث من جهة وفكر المعاصرين من جهة أخرى ، ويربط بين ذلك وبين أن يكون للفرد وجهة نظر . إن ثقافة المرء - فيما يقول عملاقنا وهرمنا الفكرى الشامخ زكى نجيب - هى وجهة نظره ، ومن ليس له وجهة نظر يقيس إليها مواقف الحياة فليس بذى ثقافة حتى ولو كان أعلم علماء عصره فى فرع من فروع العلم .

كشف لنا زكى نجيب عن الدور الرائد الذى قام به أناس آمنوا بوطنهم وبواجبهم القومى وعلى رأسهم رفاعة الطهطاوى وأحمد لطفى السيد وطه حسين وعباس العقاد .

وما كتبه رائدنا زكى نجيب من آلاف الصفحات فى مجال سيرته الذاتية والفكرية يعد معبراً عن رسالة تصلح تماماً أن تكون دستوراً هادياً لكل فرد يريد أن يتعلم معنى الصبر، معنى الكفاح والشجاعة الفكرية . إننا نجد سيرته مبسوطة فى العديد من كتبه وخاصة «قصة نفس» و «قصة عقل» ، و«حصاد السنين» . نجده يتحدث عن تاريخ الفكر العربى الحديث والمعاصر من خلال حديثه عن سيرته الفكرية وما أروعها وما أعظمها .

إننا إذا قلنا : زكى نجيب ورسالته ، قلنا : عملاق الفكر ، قلنا : أعظم مفكر فى مصرنا المعاصرة . وانظروا إلى المهام التى أنجزها علماً وعملاً ، نظراً وتطبيقاً ، فلسفة وأدباً وفنًّا ، طوال ما يقرب من سبعين عاماً ، وسترون أننا أمام رجل وهب نفسه للفكر . رجل من النادر أن نجد له مثيلاً أو نظيراً .

وإذا كنا نجد اليوم أناساً من أشباه المثقفين الذين يلتقطون فتات الثقافة من أفواه الناس فى الشوارع الخلفية ويكتبون مجموعة من الكلمات المتقاطعة ، يحلو لهم الهجوم على أفكار رائد فكرنا العربى فى مصر المعاصرة ، فإننا نقول لهم : لكم دينكم ولنا دين .

إن زكى نجيب محمود هو مفكرنا الشامخ العملاق الذى لا نستطيع فهم حقيقة فكره وجوهر رسالته الخالدة إلا إذا قرأنا وحلَّلنا كل ما كتب كلمةً كلمةً ، وأمعنا النظر فى فكره وما أعظمه من فكر . إنه الرائد والمعلِّم . إنه زكى نجيب محمود .. وكفى بهذا الاسم تجسيداً لمعنى الفكر والأدب والفلسفة فى حياتنا المعاصرة فى مصر والعالم العربى و الأجنبى .

(٢) زكى نجيب محمود . . وثقافة التنوير
(تحية للأستاذ فى يوم مولده)

عاطف العراقى

أعتقد من جانبى اعتقاداً راسخاً أن الدكتور زكى نجيب محمود يُعَدُّ الآن رائد حركة التنوير العقلى فى عالمنا العربى المعاصر من مشرقه إلى مغربه . لقد أثرى ثقافتنا العربية ثراء بغير حدود ودافع عن العلم والحضارة والعقل والتنوير . إنه إذا كتب ، فإن كتاباته تكشف عن إيمان راسخ من جانبه بأهمية الصحوة العقلية التنويرية . وإذا تكلم ففى كلماته عمق الحكمة وسمو النظرة. إنه مفكر عملاق من طراز نادر الوجود ، وهرم ثقافى نفخر به جميعاً ونتباهى به بين مفكرى العالم كله شرقه وغربه .. لقد خاض العديد من المعارك الفكرية ، والتى تعد على درجة كبيرة من الأهمية وانتصر دوماً للعقل والعلم وحارب دون هوادة جيوش البلادة والظلام والانغلاق والتقليد . ولم لا ؟ وكتاباته تعد تعبيراً عن عظمة الفكر ، عن الشعلة الخالدة ، شعلة العقل . إنه المجدد وليس المقلد . لقد سار فوق الصخور والأشواك ومهَّد لنا الطريق . إن فكره يعد كالبوصلة التى تحدد الاتجاه وتهدى إلى الطريق السليم ، الطريق الذهبى ، طريق العقل والتنوير.

ولعل مما يؤكد على ما نقول به ونحن نحتفل بيوم مولده الرابع والثمانين ، عشرات الكتب التى قدمها لنا ، ومئات الدراسات الجادة التى وضعها بين أيدينا وتعالج موضوعات شتى فلسفية وأدبية وفنية واجتماعية وسياسية ، وكم كانت تلك الكتب والدراسات هادية ومرشدة لآلاف القراء والدارسين إلى اكتشاف عوالم جديدة رائعة ، لم يكن بإمكانهم اكتشافها ولا التوصل إليها إلا بفضل أديبنا ومفكرنا زكى نجيب ، وذكائه الحاد وحسه الفلسفى النقدى الدقيق .

ولد زكى نجيب محمود بقرية «ميت الخولى عبد الله» فى اليوم الأول من شهر فبراير عام ١٩٠٥ م وقضى مرحلة التعليم الابتدائى والثانوى بالخرطوم . أما الدراسة الجامعية فكانت فى مصر. وقد تخرج فى عام ١٩٣٠ م . وسافر إلى انجلترا لإكمال دراساته ، وعاد إلى مصر بعد حصوله على درجة الدكتوراه عام ١٩٤٧ م حيث اشتغل بالتدريس بكلية الآداب جامعة فؤاد (القاهرة الآن) . وسافر إلى الكويت والإمارات العربية المتحدة وغيرهما من البلدان العربية وحصل على العديد من الجوائز والأوسمة والتى تعد اعترافاً ببصماته البارزة فى مجال الأدب

والفكر والفلسفة . ومن بين تلك الجوائز : جائزة الدولة التشجيعية فى الفلسفة عام ١٩٦٠ م عن كتابه «نحو فلسفة علمية» ، وجائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٥ م . وكان أول مصرى يحصل على جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . وأذكر أنه أكد لى حين قمت بزيارته فى منزله للتهنئة بالجائزة على ما سبق أن ذكره فى أكثر من مقالة من مقالاته، من أن منحه هذه الجائزة إن دلنا على شىء ، فإنما يدلنا على أن العروبة ثقافة قبل أن تكون سياسة .

ومفكرنا الكبير زكى نجيب محمود يعد شعلة نشاط ، إنه لا يكل ولا يمل . يشارك فى التدريس بالعديد من الجامعات فى مصر وأوروبا وأمريكا ويحضر العديد من المؤتمرات العلمية فى مصر وخارجها . إنه رجل الفكر العقلانى المستنير فى مصرنا المعاصرة وعالمنا العربى الحديث. ولن يستطيع فرد منا أن يتجاوز دور مفكرنا العظيم إذا أراد أن يؤرخ للفكر المستنير فى عالمنا العربى . إنه يكشف دوماً عن الدور الخلاق للعقل فى حل مشكلاتنا الفكرية والاجتماعية وما أكثرها ، ويدعو باستمرار إلى التنوير وثقافة النور . وإذا كنا لا نسمع عن فرد إنجليزى يجهل شعر شكسبير ، وعن فرد فرنسى يجهل أعمال الأديب فولتير ، فإنه لا يصح أن يجهل واحد منا فكر زكى نجيب محمود وأدب زكى نجيب محمود .

وإذا كان من الصعب بل من المستحيل تماماً أن نذكر فى حدود النطاق المرسوم لهذه المقالة أسماء كتب الدكتور زكى نجيب وترجماته ، فإننا نكتفى بذكر أمثلة لها ، ومن بينها : نحو فلسفة علمية والمنطق الوضعى ، وموقف من الميتافيزيقا ، وبرتراند راسل ، وديفيد هيوم ، وتجديد الفكر العربى ، وقصة الأدب فى العالم ، والمعقول واللامعقول ، وشروق من الغرب، والثورة على الأبواب ، وهذا العصر وثقافته ، ومجتمع جديد أو الكارثة ، وقصة عقل ، وقصة نفس .

أذكر أننى منذ خمسة أعوام سألت مفكرنا زكى نجيب قائلاً : إننا إذا كنا نعتز بكل كتبك، فأى هذه الكتب لديك تعد الأفضل من غيرها ؟ فأجاب قائلاً : «نحو فلسفة علمية» ، إذ أنه يلخص موقفى كله ، وكتاب «تجديد الفكر العربى» لأنه يعالج القضية الرئيسية ، قضية الأصالة والمعاصرة .

لقد نذر الأستاذ نفسه للبحث فى قضية الأصالة والمعاصرة ، وقضى فى بحثها أكثر من ربع قرن من الزمان . لقد أكد لى فى لقاء تم بيننا منذ عدة سنوات على أن تفكيره فى المزج بين الثقافة العربية والثقافة الغربية قد بدأ فى عام ١٩٥٦م ، ثم صاغ الفكرة فى عام ١٩٦٠م، وذلك فى كتاب «الشرق الفنان» . إن هذا الكتاب يعد خطة تفكير . أى : خطة بحث فى المشكلة التى

وهب لها عمره ، كما أشار إلى ذلك وبحق أديبنا الكبير توفيق الحكيم فى مقالة له نشرت بجريدة الأهرام .

قلنا إن الدكتور زكى نجيب محمود قد خاض العديد من المعارك الفكرية والاجتماعية . هذا حق لا جدال فيه . لقد كان خوضه لهذه المعارك متوقعاً بعد أن باعدنا بين أنفسنا وبين العقل . بعد أن ارتضى البعض منا لنفسه طريق الظلام والأساطير . وكم تعرَّض مفكرنا للهجوم من أشباه الدارسين وأشباه المثقفين . ولكنه ظل صامداً مدافعاً عن رأيه ، يعرف خطورة الكلمة ، يعلم أمانة حمل القلم . نعم جاء الهجوم من أناس تحسبهم من المثقفين وما هم بمثقفين ، ولكن ظلام الجهل شديد . لقد تمسَّكوا بالهواء الفاسد الراكد ، وضاقوا بالهواء المتجدد ، هواء الحضارة والعقل والتنوير .

وإذا كان زكى نجيب محمود حريصاً خلال حياته الفكرية على القيام بترجمة العديد من أمهات الكتب العالمية ، فمعنى هذا أنه كان يدرك دور الترجمة فى التعرف على فكر الآخرين والاستفادة منهم . دور الترجمة فى حركة التنوير ، تماماً كما فعلت أوروبا فى عصر النهضة ، وفعل لطفى السيد وقبله رفاعة الطهطاوى فى مصر المعاصرة . إننا إذا أهملنا الترجمة فسنصل إلى حالة تعد تعبيراً عن الظلام ، تعد تعبيراً عن الانغلاق الفكرى . تعد تعبيراً عن هدم الجسور ومنع الحوار بين الحضارات .

كما أدرك أجدادنا أهمية الترجمة منذ العصر العباسى ودورها فى تنوير العقول .. وبقدر ما يكون المفكر مدركاً أيضاً لأهمية الانفتاح على فكر الآخرين ، فإنه سيكون عظيم الأثر فى حركة الوعى الإنسانى . ويعطينا التاريخ العديد من الأمثلة على ما نقول : فدور المعتزلة أعظم بكثير من الدور التقليدى الضعيف للأشاعرة . ودور ابن رشد أهم بكثير جدًّا من دور الغزالى وابن تيمية ، وذلك لأن ابن رشد قد دافع عن ثقافة النور ، فى حين أن بعض أفكار الغزالى وابن تيمية لا تخلو من تقليد ورجعية وغلق للنوافذ ودفاع عن اللامعقول .

لقد قصد الدكتور زكى نجيب أن يبثَّ فينا حركة الإحياء ، ليس إحياء ماضى تراثنا فحسب، بل إحياء الثقافة العربية الحديثة عن طريق التعرف على فكر الغرب . ولم ينكر مفكرنا أهمية تراثنا وكم ألَّف فى مجال التراث العديد من الكتب ومن بينها كتابه عن «جابر بن حيان». والتنوير عند زكى نجيب محمود إذا كان يعتمد على العقل والأخذ بطريق العلم ومنهج الحضارة ، فإنه لا تعارض - إذن - بين دعوة مفكرنا لتجديد الفكر العربى ، واهتمامه اهتماماً بالغاً بالدراسات

المنطقية فى كتبه عن المنطق الوضعى وموقف من الميتافيزيقا ونحو فلسفة علمية . إننى أود اليوم التأكيد على هذا الموضوع لأننا كثيراً ما نسىء فهم أفكار مفكرنا ورائدنا، ونتوهم أن اهتمام مفكرنا بقضايا الفكر العربى إنما يعبر عن نوع من التوبة أو التراجع إلى آخر تلك الأفكار السطحية المتسرعة التى يلتقطها أشباه الدارسين من أفواه الناس التقاطاً . إنه لا تعارض إطلاقاً ؛ فاهتمام مفكرنا البالغ بالدراسات المنطقية قد ساعده كثيراً فى مجال تجديد الفكر العربى والتمييز بين طريق المعقول وطريق اللامعقول. ساعده كثيراً فى الدفاع عن منجزات الحضارة الحديثة وكشف أوجه التناقض التى نجدها عند من يهاجمون هذه الحضارة من خلال أجهزة تعد فى نفس الوقت ثمرة من ثمرات هذه الحضارة . إنه يقول على سبيل المثال فى كتابه «المنطق الوضعى» : أنا مؤمن بالعلم ، كافر بهذا اللغو الذى لا يجدى على أصحابه ولا على الناس شيئاً . وعندى أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية يكثر أو يقل بمقدار ما تأخذ الأمة بنصيب من العلم ومنهجه .

لقد كنت سعيداً بتتلمذى عليه منذ أكثر من ثلاثين عاماً وحتى الآن ، سعيداً بإهداء كتابى «ثورة العقل» إليه ، سعيداً باشتراكى معه فى تأليف كتيب عن ابن رشد الفيلسوف ، وضع خصيصاً لمهرجان ابن رشد بالجزائر .

واليوم ونحن نحتفل بيوم ميلاد الدكتور زكى نجيب محمود الرابع والثمانين أتوجه بالتحية والتقدير إلى رائد حركة التنوير العقلى فى عالمنا العربى المعاصر .. الرجل الذى وهب نفسه للفكر والثقافة ورفع كلمة العقل فوق كل كلمة ، لأنه لا تنوير بدون عقل . أتوجه بالتحية والتهنئة إلى رائدنا فى مجال التنوير : الدكتور زكى نجيب محمود .. فله كل التهنئة والتحية من قلب تلميذ إذا كان قد اختلف معه حول القليل من الآراء إلا أنه اتفق معه فى الكثير من آرائه الفلسفية والأدبية .. وإن كان أكثرهم لا يعلمون .

خطاب من عاطف العراقى إلى الناقد عبد الفتاح البارودى بخصوص احتفالية عن زكى نجيب محمود

السيد الفاضل / الأستاذ عبد الفتاح البارودى

تحية طيبة .. وبعد

أرجو لكم دائماً كل خير وتقدير .. اطلعت على كلمتكم المنشورة يوم الأربعاء ٤/ ٣/ ١٩٩٢م عن موضوع تكريم الدكتور زكى نجيب محمود بدار الأوبرا . ويهمنى إبلاغ سيادتكم بوجود العديد من السلبيات التى تتعلق بهذا التكريم سواء قبل الاحتفال أو أثناء الاحتفال .

أولاً : هل تعلمون سيادتكم بأن أكثر الأسماء التى تفضلتم بذكرها فى كلمتكم يوم الأربعاء الماضى لم تهتم بزكى نجيب محمود ولا بفكر زكى نجيب محمود ولم تكتب سطراً واحداً عن زكى نجيب محمود ؟!

ثانياً : من المؤسف ؛ أن المشرفين على الحفل - ربما عن قصد أو غير قصد - لم يكلِّفوا أنفسهم دعوتى رغم ما تفضلتم بكتابته عن زكى نجيب وعن كتابى «ثورة العقل» الذى قمت بإهدائه إلى سيادته ، ورغم كتابتى العديد من الدراسات التى نشرت بمصر وخارجها عن زكى نجيب محمود ، وتتلمذى على يديه وإشرافى على أكثر من رسالة للماجستير والدكتوراه عن زكى نجيب محمود ، منها رسالة مسجلة بكلية الآداب بسوهاج عن الاتجاه النقدى عند زكى نجيب محمود ، ورسالة مسجلة بآداب القاهرة عن فلسفة زكى نجيب محمود . واشتراكى فى مناقشة رسالة نجوى عمر عن زكى نجيب محمود ، أديباً ، وإشرافى على ملف عن زكى نجيب محمود نشر بمجلة المنتدى فى أول مايو ١٩٩١م. إن ما حدث يعد معبراً عن الشللية التى تحذرون منها باستمرار . لقد تمت دعوتى لحضور التكريم فى اللحظات الأخيرة قبيل الحفل وأحسست داخلى بأن

المشرفين على الحفل ربما كانوا يرون أنه من الأفضل عدم حضورى . وحضرت الحفل رغم ذلك وتعمَّدت عدم التحدث فيه .

ثالثاً : الأسئلة التى وُجِّهت إلى زكى نجيب محمود كانت تحتاج إلى دقة فى الإعداد . لقد وجهت بعض الأسئلة التى تكشف عن أن من قاموا بتوجيهها لم يكلِّفوا أنفسهم قراءة كتاب واحد من كتب زكى نجيب ، وعلى سبيل المثال : كتابه «الشرق الفنان» والذى قسَّم فيه بلدان العالم فكريًّا إلى أقسام ثلاثة .. ولم يكن بالحفل من يقوم بتوجيه أو إدارة الحوار .

رابعاً : العناصر الخاصة بنقاط الحوار والتى تم توزيعها على الحاضرين أكثرها لا يرتبط بفكر المحتفى به (د . زكى نجيب محمود) من قريب أو بعيد . وإذا كان الحفل قد نجح إلى حد ما فإن هذا يرجع إلى مهارة د . زكى نجيب محمود فى الحديث ، وإلى تواضعه الذى ظهر فى إجاباته عن الأسئلة ، رغم ما فى بعضها - أى : الأسئلة - من سذاجة وسطحية وعدم تعمق فى دراسة آراء زكى نجيب محمود .

هذه نقاط أرجو أن يتم تلافيها فى الاحتفاليات القادمة . إنها تتعلق بقضية الثقافة والمثقفين وليت الهدف يكون باستمرار ومستقبلاً هو خدمة الثقافة ، خدمة مصر ، بعيداً عن الشللية . ويكفى ما حدث بالنسبة لحفل تكريم زكى نجيب محمود !! . إنها نقاط أرجو التنبيه إليها.

وتفضلوا بقبول فائق احترامى وتقديرى لشخصكم النبيل .

عاطف العراقى

٧ / ٣ / ١٩٩٢ م

(٣) عملاق فكرنا العربى :
زكى نجيب محمود . . وداعاً

عاطف العراقى

لا عزاء للإنسان حين يفقد عزيزاً لديه إلا إذا ترك ما يعد امتداداً لحياته .. وأعتقد اعتقاداً جازماً أن زكى نجيب محمود قد ترك لنا ثروة فكرية وأدبية بغير حدود .. ستظل إلى الأبد شاهدة على الإنجازات الرائعة والقيم الخلاقة المبدعة لعملاق فكرنا العربى وهرم ثقافتنا التنويرية فى عالمنا المعاصر . ومن حقنا أن نفخر بأننا عشنا فى عصر زكى نجيب محمود وقرأنا لزكى نجيب محمود .. لقد كان رائداً بكل ما تحمله كلمة الريادة من معانٍ ومدلولات سامية ونبيلة . كانت كتاباته تفتح الطريق أمامنا للتعرف على آلاف الأفكار وما أعظمها وما أعمقها .. إنها كتابات المجدِّد لا المقلِّد .. كتابات صادرة عن عقلية لا مثيل لها .. عقلية تعد كالبوصلة التى تحدد اتجاهنا وتهدينا إلى الطريق السليم ، الطريق الذهبى ، طريق العقل .. أفخر بأننى كنت ومازلت أقرب تلامذته إلى نفسه .. أفخر حين كتبت عنه وعن كتبه مئات الصفحات ، ولا عزاء لى فى فقدان أستاذى ومعلِّمى إلا أننى سأظل سائراً على دربه معبراً عن أفكاره التى تبدد ظلام الجهل وتزيل خرافات اللامعقول .

إننى حزين غاية الحزن لأننا لم نقدِّر الرجل فى حياته حق قدره . وكما أشار توفيق الحكيم على صفحات الأهرام معزياً الرجل فى حياته قائلاً له : إننا نعيش فى «مجتمع الصراصير» وليس فى «مجتمع النمل» الذى تتعاون فيه كل نملة مع الأخرى فإننى أردد نفس العبارة بعد أن مات الرجل . وإذا كان زكى نجيب قد ولد فى الأول من شهر فبراير عام ١٩٠٥ م ، وغادر عالمنا الفانى فى التاسع من سبتمبر عام ١٩٩٣ م ، فإن حياته كلها كانت تمثل السير فوق الصخور والأشواك . لقد كان كالشمعة التى تحترق لتضئ الطريق أمام الآخرين . وهل يمكن أن ننسى عشرات الكتب التى قام بتأليفها والتى يعد كل سطر منها دستوراً لحياتنا الفكرية المعاصرة . هل يمكن أن نهمل معاركه الفكرية التى لا تصدر إلا عن مؤمن بأهمية العلم ، أهمية العقل . مؤمن بدور مصر الريادى فى عالمنا العربى . لقد كان نموذجاً وحيداً وفريداً وينبغى أن نفخر به ونقول إن مصر قد أنجبت هذا العملاق . أنجبت هرمنا الثقافى الدكتور زكى نجيب محمود .. واجب علينا

أن نعمل على نشر أفكاره وما أعظمها . إنها أفكار صادرة عن التأمل الطويل والثقافة الغزيرة والذكاء بلا حدود . وإذا كنا لا نسمع عن فرد إنجليزى يجهل شعر شكسبير وعن فرد فرنسى يجهل أديبهم فولتير . فلا يصح أن يجهل واحد منا فكر زكى نجيب وأدب زكى نجيب . إن أى فرد منا إذا أراد أن يؤرخ للفكر فى مصرنا المعاصرة ، بل فى عالمنا كله من مشرقه إلى مغربه فلن يكون بإمكانه أن يتجاوز هذا المفكر العملاق . وكم سعى إليه المفكرون فى كل أرجاء العالم للتعرف على اتجاهه الفلسفى وفكره الثاقب . إن كل زائر لمصر إذا كان يضع فى اعتباره أنه من الضرورى زيارة الأهرامات وأبى الهول فإن هذا ينطبق تماماً على زكى نجيب ، فالجميع يسعى إليه وإلى التحدث معه . الكل يبادر إلى عقد لقاء مع زكى نجيب ، تسعى إليه محطات الإذاعة والتليفزيون المحلية منها والعالمية لإجراء لقاء أو حوار معه ولو لدقائق معدودات . لقد شهدت هذا بنفسى ، والتاريخ أيضاً خير شاهد . ألم أقل لكم أيها القراء الأعزاء إن مفكرنا هو هرم مصر الفكرى والثقافى وعملاق ثقافتنا العربية . لقد أدى دوراً خالداً مشرِّفاً لنا كعرب . دافع عن أنبل المعانى والقيم السامية . أضاء لنا الطريق واستطعنا عن طريق كتبه ومقالاته اكتشاف عوالم جديدة تماماً لم يكن بإمكاننا التوصل إليها إلا عن طريق زكى نجيب . وإذا كنا نجد نفراً من أنصار التقليد والذين يعيشون فى كهوف الظلام يحلو لهم الهجوم على اتجاه رائد فكرنا العربى من مشرقه إلى مغربه، فإننا نقول لهم : لكم دينكم ولنا دين .

واليوم ونحن نودع الرجل الذى كانت حياته نمطاً نادراً وفريداً بالغ العظمة والشموخ، لأنه الأستاذ والمعلِّم والرائد ورجل التنوير . وإذا كانت النفس تفيض بالحسرة والحزن والألم فإن عزاءنا هو أن نقول إن العملاق زكى نجيب محمود إذا كان قد غادرنا إلى عالم الخلود ، فإنه عن طريق أفكاره سيظل فى عقولنا ووجداننا إلى أبد الآبدين . ولنشرع من الآن بعد صدمتنا الكبرى بفقدانه فى إحياء ذكراه ودراسة أفكاره - والتى قال عنها إنها صادرة عن نار ونور - لكى لا توضع فى زوايا النسيان والإهمال ، بل لكى تبقى حية بيننا . ولا خير فينا كعرب إذا لم نبدأ من الآن وبكل قوتنا فى دراسة كل فكرة قال بها . فكل فكرة عظيمة لا تصدر إلا عن زكى نجيب محمود .

٤- زكى نجيب محمود . . أديباً ومفكراً
(فى الذكرى الأولى لرحيله)

عاطف العراقى

من الأخطاء التى شاعت فى حياتنا الفكرية وعمل على انتشارها أشباه المثقفين وما أكثرهم: الفصل بين اللغة الأدبية واللغة الفلسفية فى الوقت الذى نجد فيه كثيراً من المفكرين قد استطاعوا المزج فى مهارة بين أبعاد المجال الأدبى ، والمجالات الفلسفية . مفكرون نظروا إلى المشكلات الأدبية من خلال منظور فلسفى ، وبحثوا فى مشكلات فلسفية متخذين اللغة العربية أداة للتعبير . وهل يمكن أن نتغافل عن أمثال فولتير ونيتشه وفلاسفة الوجودية فى الفكر الغربى ، وطه حسين وتوفيق الحكيم فى فكرنا العربى .

ورائدنا العملاق الذى وقف على قمة عصر فكرنا العربى زكى نجيب محمود يمثل هذا الاتجاه خير تمثيل . لقد كان اهتمامه بالأدب لا يقل عن اهتمامه بالفلسفة وبحيث لا يمكن الفصل بين الجانبين بأى حال من الأحوال . لقد ترك لنا العديد من المقالات والكتب والتى تشغل آلاف الصفحات وتعد معبرة خير تعبير عما نقول به اليوم . أقول هذا بعد أن قرأت وحللت كل الصفحات وكل الكتب التى تركها لنا ابتداء من مقالاته الأولى وانتهاء بآخر كتبه «حصاد السنين» . إن مقالاته الأدبية تكشف عن مستوى أدبى رفيع المستوى ، كما أن أدبه يُعَدُّ معبراً خير تعبير عما نسميه بأدب التفسير وليس بأدب التعبير ، وما أكثر المشكلات التى تصدى لدراستها وعبر عنها بأسلوب شامخ يعبر عن أعمق أعماقه ، عن المزج فى مهارة بين الطابع الفلسفى والسمات الأدبية .

اهتم زكى نجيب بهذا المجال اهتماماً بغير حدود . وهل يمكن أن ننسى العديد من كتبه؟؟ ومن بينها على سبيل المثال : قصة الأدب فى العالم ، وجنة العبيط ، وأدب المقالة، وبذور وجذور، وعربى بين ثقافتين ، وشروق من الغرب ، وقشور ولباب ، والشرق الفنان ، والثورة على الأبواب ، بالإضافة إلى ما كتبه عن شكسبير أعظم شعراء العالم ، وعن غيره من الشعراء الغربيين والشعراء العرب . وقد صدق عباس محمود العقاد حين أطلق على هرم ثقافتنا العربية زكى نجيب محمود لقب «فيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة» تماماً كما نجد هذا الوصف

منطبقاً على أبى حيان التوحيدى . أقول هذا بعد أن لازمت أستاذى ومعلّمى أكثر من أربعين عاماً من الزمان ، كما أذكر أن نفراً من الحاضرين لندوة عباس العقاد الأسبوعية قد سألوا العقاد عن أفضل من يقوم بترجمة مسرحيات شكسبير من اللغة الإنجليزية إلى العربية ، وقد أجاب العقاد دون تردد : إنه زكى نجيب محمود . وأخذ يحاضرنا فى ندوته عن الاهتمام الكبير من جانب زكى نجيب محمود بالقضايا الأدبية، وتفرقته بين العمل الأدبى والفنى الذى يعد معبراً عن رؤية ذاتية ، فى حين أن نقد العمل الفنى أو الأدبى إنما يعد معبراً كعلم عن رؤية موضوعية .

هذا الاهتمام من جانب زكى نجيب محمود بالمزج بين الأسلوب الأدبى والأسلوب الفلسفى قد أثر على كثير من تلاميذه . فإننا كنا نجد القصة الأدبية والفلسفية عند ابن طفيل ، ولقد كان هذا سبباً رئيسيًّا وراء تأليفى لكتابى : الميتافيزيقا فى فلسفة ابن طفيل . وإذا كان رائدنا الشامخ وهرم ثقافتنا العربية قد اهتم اهتماماً بالغاً بالنقد الفكرى معبراً عن ذلك من خلال أسلوب أدبى ، فإن هذا كان مؤدياً إلى تأليف كتابى «ثورة العقل فى الفلسفة العربية» وقد تم النقاش بيننا حول موضوعاته وأسلوبه قبل أن أدفع به إلى المطبعة وكنت سعيداً بإهدائى هذا الكتاب إلى الأديب والمفكر زكى نجيب محمود .

قلنا إن زكى نجيب قد اهتم بكل القضايا والمجالات الأدبية . وكتاباته فى هذا المجال تصلح لأن تكون موضوعاً لعديد من الدراسات والكتب والرسائل العلمية ، وإن كان أكثرهم لايعلمون . ففى دراساته اللغوية يشير إلى حقيقة لغوية تلفت النظر عند من يمعن فى دراسة اللغة العربية . إنه يجد فى الأسماء الدالة على علاقات اجتماعية بعداً خلقيًّا كامناً فى صميم معناها مما يدل على عمق النظرة الخلقية عند العربى . فكلمة «صديق» تحمل فى صلب حروفها صفة الصدق . وكلمة «جار» تحمل فى صلب معناها أن يجير الجار جاره إذا استجار به . وكلمة «صهر» تحمل فى صلب معناها صفة الانصهار . وكلمة «المرء» تقضى بحكم حروفها أن تكون المروءة صفة للإنسان . وكلمة «أمة» تشارك بحروفها كلمة «أم» مما يقضى أن تكون الروابط بين أبناء الأمة الواحدة هى نفسها روابط الرحم .

إن للعربى - كما يرى زكى نجيب محمود ، من منطلق ذكائه الحاد - وقفته الأخلاقية والتى هى مستوحاة فى المقام الأول من روح الصحراء فى لا نهائيتها البادية وفى ثباتها النسبى . ومدار الإبداع الفنى عند العربى صورة مجردة لتأثره بالصحراء ، وذلك قبل أن تنصبَّ العناية

على تحليل الأفراد ، ومن هنا جاء الأدب العربى القديم أبعد ما يكون عن فن الرواية أو فن المسرحية كما عرفها الغرب . وهذا ينطبق على فن الشعر العربى .. إن الشاعر العربى كما يقول زكى نجيب فى كتابه «عربى بين ثقافتين» يصف ما يراه المثل الأعلى ولا يصف أساساً الكائن المفرد المعين .

ويبين لنا مفكرنا أننا إذا استعرضنا حياتنا الثقافية والأدبية كما هى قائمة ، وجدنا جانب الفكر أضعف جوانبها . إننا فى عالم الأفكار تحت خط الفقر ، أى : الفقر الفكرى . ويحلل زكى نجيب كل نوع من أنواع الإنتاج الأدبى والعلمى والفكرى لمفكرينا العرب ، قدامى ومحدثين ، ويضع يديه على مواطن الداء ويحدد لنا طرق العلاج .

ويكشف زكى نجيب محمود فى كتابه «بذور وجذور» عن وظيفة اللغة . إنه يرى أن اللغة التى من شأنها إذا أُحسن استخدامها أن تنير الطريق إلى معرفة صحيحة بالعالم ، قد أصبحت فى حالات كثيرة وسيلة إظلام يلفنا بضبابه ونحن على وهم بأننا فى مسقط النور.

لقد كتب هرمنا الثقافى زكى نجيب آلاف الصفحات والتى عبر من خلالها عن اهتمامه البالغ بالدراسات الأدبية . . ويجب علينا أن نقف عند كل سطر من السطور التى كتبها ففيها حكمة الزمان وحكمة المكان . لقد كتب ما كتب حتى ينير لنا الطريق ، وحتى يضع لنا دستوراً لحياتنا الأدبية ، تلك الحياة التى انتشر فيها أشباه الأدباء . إنها تحية من تلميذ لأستاذه . تحية إلى روحه التى ترفرف فى سعادة وهى تفخر بما تركت من تراث خالد بنَّاء سيظل إلى الأبد مكتوباً بحروف من نور ونار .

(٥) ماذا بقى من زكى نجيب محمود ؟؟
(فى الذكرى الثالثة لرحيله)

عاطف العراقى

أعتقد اعتقاداً لا يخالجنى فيه أدنى شك ، بأن التراث الذى تركه لنا المفكر العملاق زكى نجيب محمود يعد تراثاً رائداً بكل المقاييس . . إنه لم يكتب صفحة واحدة ولم يعبر عن فكرة من الأفكار إلا بعد دراسة متأنية وتأمل طويل . ويقينى أن أفكاره ستظل فى حياتنا المعاصرة لأنها أفكار مستقبلية . لم يكن الرجل مجرد عارض لأفكار غيره كما يفعل عارض الأزياء ، بل كانت له شخصيته العلمية النقدية . وإذا كنا نجد العديد من الرسائل والكتب والمقالات حول أفكار زكى نجيب ، إلا أننا سنظل دوماً فى أمس الحاجة إلى مواصلة الدراسة حول أفكاره التى دعانا إليها ، إذ أنها تعد أفكاراً حية قال بها أديب ممتاز وأستاذ شامخ للفلسفة، ولم تكن أفكاره أفكاراً ميتة كتلك الأفكار التى انتشرت الآن عند أشباه الأساتذة وتجار التراث.

وإذا كنا نعيش فى هذه الأيام الذكرى الثالثة لرحيل هرمنا الفكرى زكى نجيب ، فإننا نود أن نشير فى سطور قلائل إلى بعض القيم الباقية لنا من كتابات وفكر الرجل . .

فمن قيمه الباقية : الإيمان بالعلم والمنهج العلمى . . لقد كتب آلاف الصفحات دفاعاً عن العلم ومنهجه وإدراكاً من جانبه لأهمية العلم فى حياتنا التى نحياها وكيف أدى العلم إلى تقدم الشعوب وبحيث يكون العلم معياراً للتمييز بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة.

إن هذه الدعوة من جانبه نجدنا فى أمس الحاجة إليها وخاصة بعد انتشار الخرافة والأساطير بين أبناء عالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه . وهل يمكن أن نتغافل عن عشرات الكتب التى تركها لنا زكى نجيب فى هذا المجال ومن بينها : المنطق الوضعى ، وخرافة الميتافيزيقا ، ونحو فلسفة علمية ، وحياة الفكر فى العالم الجديد ، وديفيد هيوم ... وغيرها ، بالإضافة إلى الكتب التى قام بترجمتها تأكيداً على أهمية العلم ومنهجه .

والعلم الذى دعانا زكى نجيب إلى دراسته وبحيث يكون دستوراً لكافة جوانب حياتنا ، هو العلم الأوروبى المعاصر . وكأن الرجل كان يدرك تمام الإدراك أن العلوم التى تركها لنا العرب قد ولى زمانها وانتهى عصرها وبحيث لا تستحق أن نقف عندها إلا للذكرى

والتاريخ ، إذ قد سادها الجانب الكيفىّ وليس الجانب الكمّىّ الدقيق ، بحيث إن من يدافع عنها يعد لا صلة بينه وبين العلم ومنهجه من قريب أو بعيد . ومن يحاول الوقوف عند علوم العرب فوقته ضائع عبثاً ويكون حاله كحال من يبكى على الأطلال .

ومن القيم الخالدة التى بثها فينا زكى نجيب : الدعوة إلى حياة النور والتنوير . لم يكن حاله كحال أشباه المثقفين أنصار البتروفكر . لم يكتب قط فكرة ظلامية لأنه أدرك بثاقب نظره وحدة ذكائه أن الوجود يرتبط بالنور ، والعدم يرتبط بالظلام ، وبحيث إذا أردنا لأنفسنا البقاء والاستمرار فلا مفر من أن نتجه نحو الضياء والنور وإلا سنكون كالخفافيش، خفافيش الظلام، وإذا كنا نجد الآن العديد من الدعوات الظلامية الرجعية ، وبحيث ابتعدنا عن الطريق الذهبى الذى دعانا إليه رجال التنوير ابتداء من رفاعة الطهطاوى ومن سبقه فى تاريخنا القديم كابن رشد آخر فلاسفة العرب ، فإن سبب ذلك يُعَدُّ راجعاً لكوننا نعيش فى «مجتمع الصراصير الثقافية» وليس فى «مجتمع النمل» . ألم أقل لكم أيها القراء الأعزاء بأن تلك القيمة الكبرى التى دعانا إليها زكى نجيب تعد قيمة مستقبلية . ومعيار الفكرة الدقيقة فيما نرى هو معيار الاستمرار .. أما الأفكار الهزيلة التى يرددها أناس حُشروا فى دائرة المثقفين والثقافة منهم براء ، فإنها تُعَدُّ أفكاراً ميتة ، ليس لها صوت ولا صدى .

والواقع أنه ليس فى وسع مقالة أن تحصر القيم الخالدة عند زكى نجيب محمود التى لا بد أن ندركها ونحتفل بها ونتمسك بها أيضاً . وهل يمكن أن ننسى ونحن نعدِّد قيم أستاذنا الكبرى، دفاعه عن المنجزات العلمية الحضارية . لقد بيَّن لنا من خلال مئات الصفحات أننا قد نقع فى تناقض حين نهاجم الحضارة من خلال ميكرفون ، أو من خلال كتاب ؛ لأنها من ثمرات الحضارة الأوروبية ؟ !

كلاَّ ثم كلاَّ . إن هؤلاء الذين يهاجمون الحضارة الأوروبية إذا أرادوا حياة الاتساق بين فكرهم الأسود ، وطريقة معيشتهم ، كان عليهم استخدام الدواب فى تنقلاتهم واللجوء إلى الصياح فى مخاطبة الآخرين . ومن المؤسف أننا نجد تلك الدعوات الرجعية عند أناس تحسبهم أساتذة وما هم بأساتذة ، بل أشباه أساتذة وتجار مذكرات وأفكار تصعد بنا إلى الهاوية .

كان الدكتور زكى نجيب محمود أديباً أيضاً ومن طراز ممتاز كما قلنا . إن مقالاته الأدبية وآلاف الصفحات التى كتبها فى كتبه ومن بينها : جنة العبيط ، وشروق من الغرب ، وقصة الأدب فى العالم ، ومجتمع جديد أو الكارثة ، وقشور ولباب ... تعد أصدق دليل على ما نقول.

إنه مفكر عقلانى يكتب بروح أدبية ، وأديب يكتب بروح فلسفية ، ولا نجد تعارضاً بين المجالين كما يزعم الأشباه والصغار وأقزام المثقفين . إن أدبه يعد إلى حد كبير داخلاً فى إطار ما نسمِّيه أدب التفسير ، وليس أدب التعبير . وكم نجد هذا الجمع عند أدباء معاصرين من أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ .

والسيرة الذاتية التى كتبها زكى نجيب تعد مثالاً يحتذى . وهل يمكن أن نتغافل عن «قصة نفس» و «قصة عقل» و «حصاد السنين» . إن القارئ لهذه الكتب يدرك فكر الرجل ويعرف تماماً أنه كان كالجبل فى شموخه . يعلم مقدار الجهد والكفاح الذى قام به . ومن حق الرجل أن يكتب سيرته الذاتية كما كتب طه حسين فى «الأيام» ، وأحمد أمين فى «حياتى»، إذ ما أكثر الدروس المستفادة من حياة هؤلاء الكبار . ولكن ليس من حق الصغار والأشباه كتابة سيرتهم، إن كانت لهم سيرة تدخل فى إطار التاريخ بمعناه الدقيق . تعلمنا الكثير من إدراك المغزى الحقيقى لسيرة زكى نجيب ، ولكن ماذا نتعلم من حياة هؤلاء الذين تحسبهم من المثقفين وهم أشباه مثقفين ، هل نتعلم منهم الجهل ؟! هل نتعلم منهم الكذب ؟ !

أدرك زكى نجيب أيضاً دور المثقف كما ينبغى أن يكون ، وكتب بعمق فى أكثر القضايا والمجالات ، وخاض عشرات المعارك الأدبية والفكرية وكان مثالاً للشجاعة والدفاع عن أهمية الكلمة فى كل زمان وكل مكان . لم يرضَ لنفسه حياة الكسل والاستسلام ، لم يجلس فى الفناء حتى يدركه الفناء ، بل خاض فى شجاعة العديد من المعارك الحقيقية ، تلك المعارك التى تختلف جذريًا عن المعارك التى تدور الآن بين أقزام وأقزام ، معارك لفظية جوفاء ، القصد من ورائها الشهرة والطبل الأجوف وتصفية الحسابات الشخصية .

كان زكى نجيب محمود وفيًا غاية الوفاء لزملائه وأصدقائه وأساتذته . تكلم عنهم بكلمات غاية فى السمو والرفعة . أقول هذا بأمانة وصدق بعد أن لازمت مفكرنا واقتربت منه أكثر من أربعين عاماً من الزمان وكتبت عنه مئات الصفحات إيماناً بأهمية مفكرنا نظراً وعملاً . لقد وضع بصماته على مجال فكرنا العربى المعاصر ، وهل يمكن أن نتصور تاريخاً للتنوير فى عالمنا العربى المعاصر بدون زكى نجيب محمود ؟! ..

لقد رحل الرجل ولكن بقيت دروسه وأفكاره وكتبه وقيمه التى بثها فينا نحن العرب . وإذا كان من حقنا أن نفخر بمفكرنا الشامخ ، فإن من واجبنا أن نفعل الكثير تخليداً لفكره وتراثه . نعم ، يجب أن نفعل ذلك اعتزازاً من جانبنا بقيمة الوفاء ، وحتى لا نكون كأناس

يضربون بتلك القيمة عرض الحائط ، وبحيث أصبحوا كالذئاب وذلك حين يقولون : نحن جيل بلا أساتذة .

نعم ، يجب علينا أن نفعل الكثير تخليداً لذكرى زكى نجيب محمود فى مصر وعالمنا العربى وحتى لا نكون كالقطة التى تأكل أولادها وخاصة بعد ارتباط الأصولية بالإرهاب، والخلط بين الدين والسياسة وانتشار ظاهرة عملقة الأقزام . كان زكى نجيب ابناً بارًا من أبناء مصر ، مفكراً محبًا لوطنه وواجبنا أن نبادله حبًا بحب . إنها دعوة من تلميذ وصديق لزكى نجيب فى ذكراه ، فهل ستتحقق هذه الدعوة أو هذا الرجاء ؟ ؟

(٦) زكى نجيب محمود .. وفكره النقدى
(فى الذكرى السابعة لرحيله)

عاطف العراقى

غيرُ مجدٍ فى يقينى واعتقادى إغفال الأفكار الرائدة والبناءة التى غرسها فينا نحن العرب مفكرنا الشامخ زكى نجيب محمود ، وخاصة فى مجال الفكر النقدى . إنها أفكار تؤدى بنا إلى الأمام سعياً نحو النور والتنوير ، وليست من قبيل الأفكار التى تؤدى بنا إلى الصعود إلى الهاوية وبحيث نعيش فى الظلام والضياع . الأفكار التى يحاول الترويج لها أشباه المثقفين وأنصار الفكر الأصولى الإرهابى والذى يمثله خير تمثيل أتباع البتروفكر وأشياع الغزالى عدو الفلسفة وابن تيمية الذى خاض فى بحر الظلمات ، وإن كان أكثرهم لا يعلمون ، وذلك حيث شنَّ حملة شعواء على الفكر المنطقى والفلسفى والذى جاء إلينا من بلاد النور، بلاد الغرب ، بلاد اليونان.

إن الفكر النقدى عند زكى نجيب يُعَدُّ موجوداً فى أكثر كتبه سواء فى مجال الفلسفة أو فى مجال الأدب وإذا أنكر ذلك قوم ، فإننا نقول لهم : لكم دينكم ولنا دين . قوم تحسبهم أساتذة وهم أشباه أساتذة وأنصاف مثقفين .

وعلى القارئ أن يرجع إلى مجرد نماذج من كتب زكى نجيب ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر : المنطق الوضعى ، وخرافة الميتافيزيقا، ونحو فلسفة علمية ، وأيام فى أمريكا ، وبذور وجذور ، وعربى بين ثقافتين ، وتجديد الفكر العربى، والمعقول واللامعقول ، وثقافتنا فى مواجهة العصر ، والثورة على الأبواب ، وشروق من الغرب. بل نجد هذا واضحاً غاية الوضوح فى كتبه التى أرَّخ فيها لمسيرة حياته الفكرية وما أخصبها وما أعمقها : «قصة نفس» ، و«قصة عقل» ، و«حصاد السنين» .

إن الحس النقدى يعد بارزاً فى دراسته لمشكلة الأصالة والمعاصرة وكان ملازماً له طوال حياته الفكرية . واستغرق منه البحث فى قضايا التراث من خلال رؤية نقدية أكثر من أربعين عاماً .

وقد أكد لى فى لقاء تم بيننا عام ١٩٨٥ م بمنزله ونحن نستعد من جانبنا للاحتفال بمرور ثمانين عاماً على مولده ، على ما سبق أن ذكره فى كتابه «قصة عقل» : لقد قال لى إن تفكيره

فى المزج بين الثقافة العربية والثقافة الغربية قد بدأ فى عام ١٩٥٦م ، ثم صاغ الفكرة فى عام ١٩٦٠م فى كتاب «الشرق الفنان» . إن هذا الكتاب يعد خطة تفكير ، أى : خطة بحث فى المشكلة التى وهب زكى نجيب لها عمره ، كما ذكر ذلك بحق على صفحات جريدة الأهرام ، عملاق الأدب العربى توفيق الحكيم ، ونعنى بها مشكلة الأصالة والمعاصرة وما يدور حولها من أسس نقدية ، ومن البحث فى كيفية تجديد الفكر العربى والبحث فى أفضل الصيغ والحلول المناسبة لمشكلات هذا الفكر ، والبحث أيضاً فى كيفية مواكبة تيار العصر ، تيار الحضارة ، الحضارة الغربية على وجه الخصوص ، صنع الدكتور زكى نجيب محاور قضاياه الرئيسية .

ونقول ونكرر القول ، إننا نجد أخطاء فاضحة وشنيعة عند من يقولون بأننا نجد تناقضاً بين مرحلة أولى عند زكى نجيب ، ومرحلة ثانية : مرحلة الوضعية المنطقية والتجريبية العلمية ، ومرحلة الاهتمام بالفكر العربى . كلّا يا سادة . إذ لا يمكن الحديث عن الفكر العربى عند زكى نجيب إلا إذا وضعنا فى اعتبارنا أنه أقامه على إيمانه بالوضعية المنطقية وبحيث كانت لديه منهجاً وليس مذهباً . إن هؤلاء الأشباه والأنصاف من الدارسين لم يضعوا فى اعتبارهم اهتمامه بالكتابة عن «جابر بن حيان» فى مرحلة مبكرة نسبيًا . نعم وقعوا فى أخطاء شنيعة حين قالوا بالمرحلتين لأنهم تعودوا على الكتابة فى كل شىء ، دون فهم من جانبهم لأى شىء ، وبحيث كانت كتاباتهم العرجاء تعد جهلاً على جهل ، وإن كان أكثرهم لا يعلمون .

أذكر للتاريخ أن مفكرنا الكبير قد ذكر لى فى لقاء تم بيننا قبل وفاته بقليل ، أنه لا تعارض بين إيمانه بالوضعية المنطقية ، ودراساته النقدية فى مجال تجديد الفكر العربى . بل نقول إن استفادة زكى نجيب من الوضعية المنطقية قد هيأت له وساعدته حين ميَّز بين المعقول واللامعقول ، ونحن نعلم أن هذ التمييز من جانبه إنما قام بالدرجة الأولى على الحس النقدى لديه ، تماماً كما فعل ابن رشد آخر فلاسفة العرب حين ميَّز بين الفكر الخطابى التقليدى ، والفكر البرهانى الفلسفى ، على أساس إيمانه بالتأويل . وكأن تاريخ الفكر يعيد نفسه .. فإذا كان الصغار من أشباه الأساتذة قد حاولوا وصف ابن رشد بأنه سلفىّ أو أشعرىّ ، فإننا نجد أقزام الباحثين يقولون بوجود مرحلة ثم مرحلة أخرى تناقضها عند زكى نجيب محمود .

إننى أذكر ابن رشد على وجه الخصوص لأنه يرتبط بذكرى معينة خاصة بلقاء لى مع زكى نجيب محمود . فإذا كان مفكرنا زكى نجيب لم يعتمد على «ابن رشد» حين ألف كتابه «تجديد الفكر العربى» ، إلا أنه كان يقدِّر آخر فلاسفة العرب «ابن رشد» تقديراً كبيراً . ولم يتردد فى

قبول مراجعة كتاب لى صغير عن ابن رشد ، كلَّفتنا به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم منذ أكثر من عشرين عاماً . وقد صدر هذا الكتيب فى مناسبة استعداد الجزائر للاحتفال بمرور ثمانية قرون هجرية على وفاة العملاق الشامخ ابن رشد . وأعترف أن زكى نجيب قد قدم لى العديد من الملاحظات البناءة منذ أن شرعت فى تأليف هذا الكتيب وإلى أن صدر عام ١٩٧٨م، وذلك رغم طول اشتغالى بفلسفة ابن رشد .

إن الحس النقدى عند زكى نجيب يُعَدُّ بارزاً غاية البروز . ونحن نعلم أن النقد يعد أبرز خصائص الفلسفة والتفلسف . فإذا كان زكى نجيب قد التزم طوال حياته بهذا الحس النقدى ، فإنه من الواجب علينا وضع الرجل فى منزلة كبرى تماماً كما ننظر إلى طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ، والأب جورج قنواتى . واجب علينا دراسة مؤلفاته وتحليل أفكاره ، وأنا على يقين من أننا سنجد فيها كعرب الفائدة كل الفائدة . نعم لا بد من إعادة تحليل أفكاره وخاصة بعد أن انتشرت بيننا ثقافة البتروفكر ، ثقافة الدولار البترولى ، ثقافة الأقزام والأشباه .

خاض زكى نجيب العديد من المعارك الفكرية من منطلق إيمانه بأهمية النقد . لقد دافع من خلال معاركه عن فكر الغرب ، وحضارة الغرب التى قدمت للإنسانية الكثير من الإنجازات الضخمة والبناءة . وكان يرى أن المتأخر لا بد أن يلحق بالمتقدم ، وبحيث لا يصح أن نطلب من المتقدم أن يقف فى مكانه حتى يلحق به المتأخر . كان يرى أهمية النظر إلى الأمام ، النظر إلى المستقبل ، وإذا كان الله قد خلق أعيننا فى مقدمة رؤوسنا ، فكأنه قد طلب منا النظرة التقدمية ، وليست النظرة الرجعية .

لم يرتضِ زكى نجيب لنفسه موقف الذين يخلطون بين الدين والسياسة ، بحيث يقومون بالإساءة للدين تارة وللسياسة تارة أخرى ، ونعنى به موقف الاتجاه الأصولى .

ولم يخلط بين الدين والعلم ، فالدين ثابت والعلم متغير ، ولا يمكن أن نلحق الثابت بالمتغير . ونحسب أن هذا الموقف من جانب زكى نجيب يعد صائباً غاية الصواب . إنه موقف يتفق مع الاتجاه العقلى .. وهو الموقف الذى نجده عند طه حسين فى أعظم كتبه «من بعيد» ، وعند توفيق الطويل فى كتابه «التنبؤ بالغيب» ، وأيضاً عند فؤاد زكريا فى العديد من كتبه .

دافع مفكرنا الكبير زكى نجيب من خلال العديد من كتبه عن العقل والمعقول . وقد وجدت من واجبى حين انتهيت من كتابى «ثورة العقل فى الفلسفة العربية» أن أقوم بإهدائه إلى زكى نجيب ، وكان ذلك منذ أكثر من ربع قرن من الزمان . وكان حريصاً على الربط بين

الاتجاه العلمى والاتجاه العقلى . إنه يقول فى أول سطر خطه فى واحد من أهم كتبه : أنا مؤمن بالعلم ... إلخ .

ولم يكن زكى نجيب محمود مجرد مردد لآراء هؤلاء الذين يفخرون بالعلوم عند العرب . إنه يعلم أن علوم العرب تعد وصفية كيفية لم تتمخض عنها إنجازات تُذكر ، أما العلم الدقيق فينبغى أن يكون كمًّا ، وكمًّا فقط ، وهذا ما نجده فى العلم الحديث . وأحسب أن هذه الفكرة الصائبة من جانب زكى نجيب إنما تعد نوعاً من التأثر بما ذهب إليه طه حسين فى كتابه «من بعيد» والذى رأى أن الويل للأمة العربية حين تلجأ إلى كتاب القانون فى الطب لابن سينا أو تذكرة داود ، بحيث تجعل هذه الكتب وغيرها مراجعها فى علم الطب .

إن القارئ لأفكار زكى نجيب النقدية لابد وأن يدرك الجهد الكبير الذى بذله . إنه صاحب رؤية متميزة ، رؤية تصدر عن ذكاء ثاقب ، وعقلية من النادر أن نجد مثيلاً لها . إنه لا يقرأ التراث كقراءة الأشباه وأنصاف المثقفين الذين يتاجرون بالتراث وينشرون الظلام فى أرجاء الدنيا ، بل يقرأ التراث قراءة نقدية . ولا نمل من جانبنا فى أن نقول إننا قد نجد فى كتب التراث كمًّا هائلاً من الخرافات والتى قد تزيد على عدد سكان الدول العربية من مشرقها إلى مغربها . يقول زكى نجيب فى كتابه الرائع «قصة عقل» : لقد قرأت ما قرأته (من التراث العربى) ليكون حكمى عليه قائماً على معايير عصرنا نحن من حيث انتفاع الناس به أو عدم انتفاعهم .

لقد مات زكى نجيب ، ولكن أفكاره ستظل إلى أبد الآبدين فى عقولنا ومشاعرنا ووجداننا. إنها أفكار حية عظيمة رائعة صدرت عن إنسان آمن بربه وآمن بوطنه . وأحسب أن روح زكى نجيب محمود تحلِّق الآن فى سعادة حين تعلم أن أفكار صاحبها قد قُدِّرَ لها الخلود ، فتحية له فى ذكراه السابعة من تلميذ له مازال يعيش فى عالم الفساد والزوال ، وإلى أن تلتقى الأرواح بالأرواح فى عالم الخلود : كل الدعاء والتحية لك أيها الأستاذ العظيم .

(٧) زكى نجيب محمود . . و المستقبل
(فى الذكرى التاسعة لرحيله)

عاطف العراقى

قد لا أكون مبالغاً إذا قلت أن زكى نجيب محمود كان واحداً من أبرز مفكرى العرب المحدثين والمعاصرين . إنه يُعَدُّ واجباً علينا نحن العرب أن نفخر به ونتفاخر فى كل زمان وكل مكان . كان مفكراً شامخاً عملاقاً . وإذا كانت مصر قد أعطته الكثير ، فقد بادل مصر حبًّا بحب وعطاء بعطاء . كان أستاذاً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ سامية وقيم نبيلة ، وإن كان أكثرهم لا يعلمون ، وخاصة فى وقت انتشر فيه الآن بيننا أشباه الأساتذة وأنصاف المفكرين والمثقفين ، هؤلاء الذين يكتبون فى كل شىء ، دون فهم من جانبهم لأى شىء .

ويهمنا اليوم ونحن نكتب فى ذكرى رحيله ، أن نركز على الرؤية المستقبلية للرجل ، وليس بخافٍ علينا أننا نجد صنفين من المفكرين : صنف لا نجد لديه القدرة على تجاوز الماضى والحاضر ، وصنف آخر يملك عن طريق قلمه تجاوز الماضى والحاضر ، وبحيث يكون منطلقاً نحوالمستقبل ، ومن هؤلاء زكى نجيب محمود .

نعم ، لقد أدرك الرجل بثاقب نظره أنه ليس من المفيد إطلاقاً لأمتنا العربية الوقوف عند التراث لمجرد أنه تراث ، والبكاء على الأطلال ، لأن التراث يعدُّ نتاجاً لأفراد البشر مثلى ومثلك أيها القارئ العزيز . والبشر ليسوا كالقدِّيسين . إنهم معرَّضون للخطأ فى كل زمان وكل مكان . وبحثوا فى قضايا ومشكلات عفا عليها الزمن وأصبحت غير مناسبة إطلاقاً لعصرنا الذى نحياه ولمستقبلنا الذى ننشده وبحيث يكون أفضل من الماضى ومن الحاضر أيضاً . بل أقول إن التراث الذى يحلو للبعض إقامة هالات المجد حوله ، نجد فيه كمًّا من الأخطاء لا أكون مبالغاً إذا قلت إن عددها يفوق عدد سكان الدول العربية من مشرقها إلى مغربها .

غير مُجْدٍ فى مِلَّتى واعتقادى إهمال أفكار زكى نجيب . لقد قال بما قال به من منطلق رؤية مستقبلية تريد لمصر التقدم دوماً ، وتريد للعرب أن يصيروا إلى حالة أفضل من حالتهم فى الماضى وحالتهم فى الحاضر. لقد قال زكى نجيب فى مقالة نشرت بالأهرام منذ زمان طويل إن العبرة بالتكنولوجيا وليس بالكلامولوجيا . والتكنولوجيا نجدها فى الغرب بصفة خاصة ، أما

عندنا نحن العرب فنجد السائد هو الكلامولوجيا . وذلك حين يتكلمون ويسرفون فى الكلام حول قضايا لفظية ومشكلات زائفة خادعة . ويتكلمون فى الخرافة أكثر بكثير جداً من كلامهم عن العلم وتطبيقاته التكنولوجية .

لقد ظل الرجل طوال حياته الفكرية مدافعاً عن العلم وعن الحضارة وكتب آلاف الصفحات فى هذه المجالات ، ومن بينها وعلى سبيل المثال لا الحصر : المنطق الوضعى ، ونحو فلسفة علمية ، وشروق من الغرب ، وقشور ولباب ، والثورة على الأبوب . وفى مجال الفكر العربى : تجديد الفكر العربى ، والمعقول واللامعقول ، وثقافتنا فى مواجهة العصر . أليست هذه الكتب وعشرات أخرى من كتبه تعد دستوراً لنا نحن العرب ، إذا أردنا تجاوز الماضى والحاضر ، وأردنا البحث عن مستقبل أكثر إشراقاً وضياء . نعم ثم نعم . إن واجبنا المقدس أن نترك الظلام وننشد النور والضياء فى كل زمان وكل مكان .

بل إن مفكرنا زكى نجيب حين أقدم على ترجمة ما ترجم ، كان حريصاً على اختيار الكتب العلمية بصفة خاصة ، الكتب التى تركز على تصوُّر مستقبل أفضل للبشرية جمعاء ولم يكن اهتمامه بالفكر العربى ومشكلاته آتياً فى مرحلة متأخرة من حياته وبعد دراسة للفكر الأوروبى كما يتصور أشباه الدارسين والذين يقولون بأن زكى نجيب قد انتقل من مرحلة أولى (الفكر الأوروبى) إلى مرحلة ثانية (الفكر العربى) كلاً ثم كلاً . إننا نؤكد على القول بأننا لا نجد مرحلتين ، بل هى مرحلة واحدة ، فمقالته عن هجرة الروح قد تعد من أولى مقالاته ، وكتابه عن جابر بن حيان ، قد كتبه منذ ما يقرب من أربعين عاماً قبل وفاته .

كان للرجل رؤيته المستقبلية وهو يؤرخ لحياته من الداخل ومن الخارج . وبالإضافة إلى العديد من الإشارات والتى نجدها فى كثير من كتبه حول حياته الفكرية ، نجد كتباً ثلاثة كتبها مؤرخاً لحياته ونعنى بها : قصة نفس ، وقصة عقل ، وحصاد السنين والذى يعد آخر كتاباته . وأشهد بعد أن اقتربت من الرجل ، طوال ما يقرب من نصف قرن من الزمان ، وعلى وجه التحديد منذ عام ١٩٥٥م وحتى مغادرته لدنيانا فى التاسع من سبتمبر عام ١٩٩٣م . إن الصدق ، كل الصدق ، هو ما ذكره فى ثلاثيته التى أرخ فيها لحياته الفكرية ، هذا بالإضافة إلى أن هذه الثلاثية ، تعد نموذجاً لما ينبغى أن تكون عليه كتابة السيرة الذاتية من الاهتمام بالقضايا والمشكلات العامة ، أكثر من الحديث الكاذب والزائف حول الأمور الفردية الذاتية الشخصية، وذلك على النحو الذى نجده شائعاً للأسف الشديد عند أناس تحسبهم من المفكرين ، وهم

ليسوا بمفكرين ، بل أشباه مفكرين ، وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إننا نادراً ما نجد سيراً ذاتية صادقة ، كالسير الرائعة الصادقة التى نجدها فى «الأيام» لطه حسين ، و«حياتى» لأحمد أمين ، و«ثلاثية» زكى نجيب محمود . إنها سير تكشف لنا عن رؤية مستقبلية ، رؤية تكشف عن ظلمات الماضى ، وتركز على نور المستقبل . نقول هذا ولابد من القول به ، ما دمنا لا نزال نجد فى أرضنا العربية من يفسد فيها ، وذلك فى مجال كتابة السيرة الذاتية . ولعل زكى نجيب كان مشيراً إلى هذه الظاهرة المؤسفة فى الصفحات الأخيرة من آخر كتبه «حصاد السنين» وذلك حين تحدث عن عملقة الأقزام ، وكيف يصنع البعض من القزم عملاقاً ؟ ..

ومن معالم الرؤية المستقبلية عند مفكرنا زكى نجيب : المعارك الفكرية التى أثارها . كان الرجل شجاعاً غاية الشجاعة . ولا أخفى على القارئ أننى حين قمت بإهداء كتابى «ثورة العقل فى الفلسفة العربية» إلى زكى نجيب محمود ، فإن الدافع الرئيسى من إهداء كتابى هذا إليه هو إعجابى بشجاعته حين أثار معارك فكرية حول موضوعات لا حصر لها .

لقد آمن الرجل بربه ، وآمن بوطنه ، وأراد لمصر خاصة ، وللعروبة عامة ، أن يكون الحال فى المستقبل ، أفضل من الحال فى الماضى ، وفى الحاضر ، ولم لا ؟ والعروبة فيما يرى زكى نجيب تعد ثقافة قبل أن تكون سياسة . لقد أكد الرجل على هذه المقولة فى مقالة مشهورة من مقالاته التى كان ينشرها بجريدة الأهرام . كان لأستاذى زكى نجيب - والذى أفخر بسعادتى واستفادتى العديد من الدروس الفكرية على يديه ، وشقائى حين شاركت مع مريديه فى وداعه الأخير حين نعى الدنيا وصام عن الحياة - العديد من الآراء التى تكشف عن الرؤية المستقبلية ، ومن بين تلك الآراء ، إدراكه الثاقب لما تعنيه كلمة المثقف . إن المثقف ليس هو المتخصص فى مجال معين من مجالات العلم أو الفكر . إن المثقف هو المهموم بقضايا أمته خاصة ، والإنسانية عامة . وقد نجد متخصصاً ولكن ليس بالضرورة يكون مثقفاً وذلك حين يجهل أو لا يهتم بالقضايا الأدبية والفنية والسياسية . وقد التزم زكى نجيب بذلك التصور التزاماً تامًّا .. لقد أضاف إلى دروسه الرائعة بالجامعة عن المنطق وفلسفة العلوم ومناهج البحث ، الاهتمام بالقضايا العامة التى تشغل بال المثقفين فى كل أرجاء الأمة العربية ، وأفراد الإنسانية . وعلى القارئ العزيز أن يرجع إلى مئات المقالات الرائعة التى كتبها ، طوال حياته الفكرية والثقافية ، فى العديد من الصحف والمجلات ، وسيدرك تمام

الإدراك أن الرجل قد التزم بكل أبعاد تصوره لما تعنيه كلمة المثقف من زوايا وأبعاد ، وقد أشار إلى ذلك صديقه الوفى الأديب الكبير توفيق الحكيم فى أكثر من مناسبة .

لقد أجهد زكى نجيب محمود نفسه إجهاداً كبيراً . وإذا كان الرجل قد أصبح معروفاً فى سماء حياتنا الفكرية المعاصرة ، فسبب ذلك أنه فعل ما أدى به إلى ذلك ، تماماً كما فعل مفكرون وأدباء كبار من أمثال رفاعة الطهطاوى وطه حسين وعباس العقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ والذين نفخر بهم ونتفاخر .

لم يكن مفكرنا زكى نجيب نتاجاً لظاهرة عملقة الأقزام ، تلك الظاهرة الزائفة والآتية عن طريق الشهرة الكاذبة . وإذا كانت روح الرجل تحلِّق الآن فى السماء وتفخر بما قدَّم صاحبها إلى الناس ، فإننى لا أتردد فى القول بأن سعادتى لن تتحقق إلا بمغادرتى عالم الدنيا ، عالم الشقاء ، وبحيث تلتقى الأرواح بالأرواح .

(٨) زكى نجيب محمود . . وقضية الإنسان
(فى الذكرى العاشرة لرحيله)

عاطف العراقى

نستطيع القول بأن الدور الرائد والحيوى الذى أداه زكى نجيب محمود ، لا يقل بأى حال من الأحوال عن أى دور قام بأدائه أعظم المفكرين فى أمتنا العربية من مشرقها إلى مغربها . إن أى كلمة أو عبارة يقول بها زكى نجيب محمود ستظل فى عقل ووجدان الناس ، فإذا نطق زكى نجيب محمود فقد نطق الحكيم ، وإذا كتب فإن كتاباته تعد تعبيراً عن منارة الفكر ، عن الشعلة الخالدة ، شعلة العقل الذى يعد أعدل الأشياء قسمة بين البشر .

لهذا كله لم يكن غريباً أن يلتف ملايين القراء حوله ، وأن تكون كتاباته وأحاديثه مثار مناقشات وتعليقات لا حصر لها . إنها كتابات حية وليست ميتة . كتابات تعد معبرة عن تيار وجوهر الحضارة كما ينبغى أن تكون الحضارة . كتابات تعد فتحاً عظيماً لآلاف الأفكار والآراء . إنها ثمرة للعقل الثاقب ، العقل العملاق ، عقل زكى نجيب محمود . العقل الذى من النادر أن تجد له مثيلاً . كما تعد كتاباته ثمرة لاطلاعه الواسع الغزير وثمرة لاعتقاده بأن الفكر يجب أن يكون قضية الإنسان الرئيسية وجوهر حياته .

وإذا كان من المستحيل تماماً أن نعبر من خلال صفحات قليلة عن جوانب فكره واتجاهه فإننا سنكتفى بالإشارة إلى الجوانب الرئيسية من جوانب فكره ، الجانب الذى يتبلور حول قضية التجديد وكيف كانت دعوته للتجديد تعبيراً عن تيار العصر وروح الحضارة . هذه القضية التى ترتبط بالعديد من القضايا فى حياتنا المعاصرة . كلما تمر علينا السنوات بل القرون سيزداد تقديرنا لفكر الرجل و عمق آرائه لأن المجدد بما يتمتع به من الذكاء الحاد وأصالة البصيرة إنما يتخطى عصره . إنه يخترق حجب الماضى والحاضر متجهاً إلى المستقبل . المستقبل الذى لا يدركه المقلد لأنه يجتر من ماضيه أساساً فى حين يكتشفه المجدد بعمق نظرته وأصالة تأمله .

لقد كان زكى نجيب حريصاً منذ عودته إلى مصر فى خريف عام ١٩٤٧م، على الدعوة إلى التشبع بروح الثقافة المعاصرة من جهة ، والدعوة إلى التجريبية العلمية من جهة أخرى . إنه

يذكر لنا فى كتابه «قصة عقل» أن فكره حين عاد إلى مصر كان قد تبلور فى شعبتين : إحداهما : وجوب الأخذ بروح الثقافة الأوربية المعاصرة ، لعلها تنتهى بنا إلى مثل ما انتهى بأصحابها إليه من وضع الإنسان الفرد فى مكانة تشبه التقديس ، والثانية هى وجوب الدعوة إلى التجريبية العلمية ، لأنها إذا كانت مجرد اتجاه فلسفى هناك فهى بالنسبة للأمة العربية ضرورة ، إذ من شأنها أن تضبط اللفظ فى مجال التفكير العلمى ضبطاً صارماً وهو ما أظننا فى أشد الحاجة إليه .

وكما كان مفكرنا شعلة نشاط من النادر أن نجد لها مثيلاً فى حياتنا الثقافية المعاصرة ، قبل سفره إلى إنجلترا ، كان أيضاً هذا حاله بعد عودته من انجلترا . لقد سافر فى مهام علمية عديدة إلى كثير من البلدان شرقاً و غرباً . عمل أستاذاً زائراً بأمريكا خلال عامى ١٩٥٣م، ١٩٥٤م ، كما عمل مستشاراً ثقافيًا بسفارتنا بواشنطن . وسافر إلى الكويت حيث عمل بجامعتها أستاذاً للفلسفة لمدة خمسة أعوام (١٩٦٨ - ١٩٧٣م) . وتمت دعوته لزيارة أكثر من دولة عربية من بينها الإمارات العربية المتحدة لإلقاء مجموعة من المحاضرات بجامعاتها .

لقد حصل أستاذنا على العديد من الجوائز تكريماً له واعترافاً بدوره الفكرى والثقافى وريادته فى مجال الفكر العربى المعاصر والفلسفى منه على وجه الخصوص . حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٠م عن كتابه «نحو فلسفة علمية» . وحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٥م ، وحصل على جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وهو أول مصرى يحصل على هذه الجائزة . وقد ذكر لى أثناء إحدى مقابلاتنا بمنزله أن منحه هذه الجائزة يدلنا على أن العروبة ثقافة قبل أن تكون سياسة ، وكان هذا موضوع مقالة من مقالاته بجريدة الأهرام . كما حصل على الدكتوراه الفخرية من الجامعة الأمريكية . هذا بالإضافة إلى رئاسة تحرير «مجلة الفكر المعاصر» وإشرافه على العديد من المجلات الأخرى. ورئاسته للجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة وعضويته باللجان العلمية والفكرية واشتراكه فى الإعداد لكثير من المؤتمرات الفلسفية ومن بينها مؤتمر عن الفيلسوف العربى ابن رشد بالجزائر . وقد كنت مسروراً غاية السرور باشتراكى معه فى وضع كتيب عن آخر فلاسفة العرب «ابن رشد» وكم تضاعف سرورى حين أهديت له كتابى «ثورة العقل فى الفلسفة العربية» اعترافاً بدوره الخلاق والمبدع فى صياغة حياتنا الفكرية ، وحين قمت بالإشراف على مجلد تذكارى صدر عنه بعد رحيله بعدة سنوات .

لقد دعانا زكى نجيب محمود إلى ضرورة التعرف على فكر الغرب والاستفادة منه ، وقام

بترجمة العديد من الكتب ترجمة تعد غاية فى الدقة والأمانة ، ومن بينها على سبيل المثال : الجزءان الأول والثانى من كتاب «تاريخ الفلسفة الغربية» للفيلسوف الإنجليزى المعاصر «برتراند راسل» ، ومجموعة أجزاء من الموسوعة الضخمة «قصة الحضارة» للمفكر الأمريكى ول ديورانت ، وكتاب «المنطق» للفيلسوف الأمريكى جون ديوى ، ومجموعة من محاورات أفلاطون . لقد شملت ترجمة التراث القديم والفكر الحديث والمعاصر أيضاً، وهذا يعد من جانبه اعترافاً بقيمة الترجمة ودورها فى التنوير تماماً كما حدث فى العصر العباسى ، وما حدث أيضاً فى عصر النهضة الأوروبية .

كان الدكتور زكى نجيب محمود فى دعوته التجديدية حريصاً الحرص كله على أن يبين لنا أهمية الاستفادة من أفكار الأمم الأخرى ، أى : الانفتاح على حضارة الغرب . إننا نجد ذلك واضحاً سواء فى كتبه الفلسفية أو فى كتبه التى يغلب عليها أنها تعالج موضوعات أدبية . نعم إننا نجد هذا واضحاً تمام الوضوح فى كتب عديدة تركها لنا هرمنا الفكرى الشامخ ، ومن بينها: الشرق الفنان ، وتجديد الفكر العربى ، والمعقول واللامعقول ، وحياة الفكر فى العالم الجديد ، وبرتراند راسل ، وديفيد هيوم ، والمنطق الوضعى ، ونحو فلسفة علمية ، وجنة العبيط ، وشروق من الغرب ، وقشور ولباب ، ومجتمع جديد أو الكارثة ، والثورة على الأبواب ، ومن زاوية فلسفية ، وفى حياتنا العقلية ، وفى فلسفة النقد ، وهموم المثقفين ، وثقافتنا فى مواجهة العصر ، وقصة نفس ، وقصة عقل ... إلى آخر تلك الكتب التى نجد فيها دعوة إلى الأخذ بأسباب العلم وأسباب الحضارة ، كما دعانا إلى ذلك أيضاً فى آخر كتبه «حصاد السنين» .

لقد انطلق مفكرنا الكبير وبكل ما يملك من وقت وجهد نحو البحث فى مشكلة تجديد الفكر العربى ، مشكلة المواكبة بين التراث من جهة وتيار العصر والحضارة من جهة أخرى. لقد أخلص للبحث فى هذه المشكلات إخلاصاً لا مثيل له . اهتم بالبحث فى هذه القضايا التى ترتبط كل قضية بالأخرى وتقترن بها منذ أربعين عاماً ، ولقد أكد لى فى لقاء تم بيننا قبل رحيله منذ سنوات على ما سبق أن ذكره فى كتابه (قصه عقل) . لقد قال لى إن تفكيره فى المزج بين الثقافة العربية والثقافة الغربية قد بدأ فى عام ١٩٥٦م ، ثم صاغ الفكرة فى عام ١٩٦٠م وذلك فى كتاب «الشرق الفنان» . إن هذا الكتاب يعد خطة تفكير ، أى : خطة بحث فى المشكلة التى وهب لها عمره ، مشكلة الأصالة والمعاصرة وما يدور حولها من البحث فى كيفية تجديد الفكر العربى والبحث فى أفضل الصيغ أو الحلول المناسبة والبحث أيضاً فى كيفية مواكبة تيار الحضارة ، والحضارة الغربية منها على وجه الخصوص .

لقد تميز زكى نجيب بحس نقدى غاية فى الدقة والروعة ؛ مما يجعلنا نقف أمام شخصيته فى إكبار وإجلال .. ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الحس النقدى هو أهم ما يميز الفكر الفلسفى وأهم ما يعبر عن خصائص الموقف الفلسفى .

ويحلل زكى نجيب محمود الاتجاهات الفلسفية فى العالم مبيناً اهتمامه بقضية الإنسان ، إنه يقول فى كتابه قصة عقل : إذا أمعنت النظر فى الاتجاهات الفلسفية المعاصرة ، ويمكن بلورتها فى أربعة اتجاهات ، وجدت جذرها المشترك هو اتخاذ الإنسان فى حياته الدنيوية محور الاهتمام . وانظر على هذا الضوء إلى تلك الاتجاهات الأربعة : أحدها هو اتجاه الفلسفة التحليلية التى تعنى أكثر ما تعنى بفلسفة العلوم والتى هى الفلسفة السائدة فى بريطانيا ، فما دامت تصب اهتمامها على التفكير العلمى ، فهى بالتالى تقر ذلك الاهتمام على ما هو ذو صلة بحياة الإنسان هنا على هذه الأرض . وثانيها هو اتجاه الفلسفة البراجماتية الذى له السيادة فى الولايات المتحدة الأمريكية وأساسه هو أن الفكرة تعد صحيحة إذا كانت نتائجها نافعة للإنسان ، فليس المهم هو أصل الفكرة من أين جاءت وكيف جاءت ؟ بل المهم ماذا عساها أن تثمر للإنسان من نتائج تنفعه فى حياته ؟ . وثالثها هو اتجاه الفلسفة الوجودية فى غربى أوربا ومدار تلك الفلسفة حرية الإنسان فى القرار الذى يتخذه لنفسه ليكون بعد ذلك مسئولاً عنه مسئولية خلقية . ورابعها هو اتجاه الفلسفة المادية الجدلية السائدة فى شرقى أوربا ، ومحورها هو أن الحياة الثقافية كلها بما فيها القيم الأخلاقية والجمالية ، إنما تولدت عن الحياة الاقتصادية من زراعة أو تجارة وصناعة ، فإذا غيرت من أسس الحياة الاقتصادية المادية ، تغيرت بالتالى دنيا الثقافة . إذن : ففى مقدورنا أن نشكل العلاقة الاقتصادية تشكيلاً ينتهى بنا إلى إقامة حياة إنسانية تصون للإنسان حقوقه .

ويبين لنا مفكرنا أن الفكر فى الغرب إذا كان اتجاهه الأول هو صون الإنسان من العوامل التى كانت تطحنه وتقهره قهراً ، فإنه من الضرورى -إذن- العمل على نشر مثل هذا الفكر فى بلادنا وذلك حتى نتمكن من توقير وتقديس مكانة الإنسان وكرامته ، بل لا مفر من قبول النتائج الفرعية التى تنبثق عن تلك الجذور ومنها ما هو خاص بالنظرة العلمية الواقعية إلى الأمور ، ما دامت أموراً لا صلة لها بمشاعر الإنسان الخاصة . ومن هنا جاءت دعوة زكى نجيب محمود إلى الأخذ الصارم بالنظرة العلمية التجريبية مفرقاً فى حياة الإنسان بين مجالين: مجال التفكير العلمى بكل تفريعاته ومجال الحياة الوجدانية بشتى جوانبها ، فما يصلح لذلك لا يصلح لهذا ، فلكل منهما مواقف ولكل منهما معايير للرفض أو القبول . ولم يقف

مفكرنا فى دراسته لقضية التجديد ، وخاصة من خلال كتبه : تجديد الفكر العربى ، والمعقول واللامعقول ، وثقافتنا فى مواجهة العصر ، وعربى بين ثقافتين ، وبذور وجذور .. لم يقف عند التراث لمجرد أنه تراث ، كما أنه لم يرفض التراث جملة وتفصيلاً . نعم ، لم يرفض التراث من أساسه كما يزعم بعض المتسرعين والأشباه . وليرجع القارئ إلى القسمين اللذين يتألف منهما كتابه «تجديد الفكر العربى» ، وخاصة الفصل التاسع من القسم الثانى وموضوعه «قيم باقية فى تراثنا» ، وأيضاً إلى القسمين اللذين يتألف منهما كتابه «المعقول واللامعقول» . إنه يضرب أمثلة من التراث ، ولا يضرب أمثلة من الهواء الفارغ . إنه يدرس التراث دراسة عميقة وبعد ذلك يرتضى لنفسه أن يقف منه موقف المؤيد لبعض ما فيه من قيم تتفق مع العقل ، وموقف المعارض لما فيه من قيم تعبر عن شطحات اللاعقل .

لقد أخلص مفكرنا لقضية الأصالة والمعاصرة إخلاصاً بغير حدود ، وكما أشار إلى ذلك توفيق الحكيم . إنه يقول إن قضية الجمع بين أصالتنا وضرورة معايشتنا لعصرنا ربما كانت أهم ما تعرضت له من اهتمامات بالتفكير والكتابة . لقد أصبحت على يقين من أن هذه المسألة هى أم المسائل الثقافية جميعاً . إنها القضية التى يصح أن نقول حيالها قولة هاملت فى أزمته النفسية: أن أكون أو لا أكون - ذلك هو السؤال - .

هذا هو مفكرنا العملاق أستاذاً ومفكراً وأديباً . إنك لن تستطيع فهم لب فكره ومذهبه إلا إذا قرأت كل ما كتب سطراً سطراً بل كلمة كلمة . لقد دخل تاريخنا الفكرى والثقافى المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها . شق طريقه وسط الأشواك والصخور . وترك لنا ثروة فكرية فلسفية أدبية غاية فى العمق . ولن يستطيع مفكر أو أديب أن يغفل أو يتغافل عن هذه الثروة . إنها تعد كنزاً فكريًّا أبدعه عقل مفكر جبار سعياً وراء نور المعرفة ، نور الضياء الذى يهدينا فى حياتنا . إن أفكاره حية ، والأفكار الحية دون غيرها هى التى توجب الصراع حولها لأنها أفكار شامخة ، أفكار تؤدى إلى إيقاظ العقول حولها . إن رائدنا ومفكرنا العظيم تعد كتاباته كلها دعوة إلى التمسك بتيار العصر والحضارة . تيار التجديد . تيار العقلانية .

رحم الله فقيدنا الكبير وأحسب أن روحه تحلِّق الآن فى السماء فى سعادة وذلك حين تدرك الصدى الكبير لكل كلمة من الكلمات العظيمة التى قال بها زكى نجيب محمود .

(٩) زكى نجيب محمود .. الرائد العظيم
(فى الذكرى الحادية عشرة لرحيله)

عاطف العراقى

إذا كانت أكثر بلدان العالم العربى - كما علمنا - قد بدأت فى الاستعداد للاحتفال بمرور قرن من الزمان على مولد هرم الثقافة العربية ، مفكرنا الشامخ العظيم زكى نجيب محمود (ولد فى فبراير عام ١٩٠٥م) ، فإننا من جانبنا نقول إنه يعد واجباً على مثقفى مصر العزيزة التفكير من الآن فى صورة الاحتفالية التى من الضرورى القيام بها فى هذه المناسبة . إن هذا يعد واجباً مقدساً علينا نحو مفكرنا المصرى العربى . إننا إذا لم نفعل ذلك فستلحق بنا لعنة الفكر فى كل زمان ومكان ، وسنكون كالقطة التى تأكل أولادها . لقد أحب الرجل مصر وقدَّم لها أكبر قدر من العطاء الفكرى ، وواجبنا كمصريين أن نبادل الرجل حبًّا بحب وعطاء بعطاء .

ونود - بعد أن اقتربنا من الرجل ما يقرب من نصف قرن من الزمان وقرأنا كل ما كتب من مؤلفات ودرسنا ما قام به من ترجمات - أن نشير فى الذكرى الحادية عشرة لوفاته (توفى فى التاسع من سبتمبر عام ١٩٩٣م) إلى بعض صور من عطاء الرجل الفكرى علها تكون مساعدة فى كيفية الاحتفال بمرور قرن على مولده .

وإذا كان من المستحيل تماماً أن نعبر من خلال صفحات قليلة عن جوانب فكره واتجاهه فإننا سنكتفى بالإشارة إلى بعض الجوانب الرئيسية من جوانب فكره ، الجانب الذى يتبلور حول قضية التجديد وكيف كانت دعوته للتجديد تعبيراً عن تيار العصر وروح الحضارة . هذه القضية التى ترتبط بالعديد من القضايا فى حياتنا المعاصرة ، وكلما تمر علينا سنوات وسنوات وقرون وقرون ، سيزداد تقديرنا لفكر الرجل وعمق آرائه لأن المجدد بما يتمتع به من الذكاء الحاد وأصالة البصيرة إنما يتخطى عصره . إنه يخترق حجب الماضى والحاضر متجهاً إلى المستقبل . المستقبل الذى لا يدركه المقلِّد لأنه يجتر من ماضيه أساساً فى حين يكتشفه المجدد بعمق نظرته وأصالة تأمله .

لقد كان حريصاً منذ عودته إلى مصر فى خريف عام ١٩٤٧م ، بعد بعثته بانجلترا ، على الدعوة إلى التشبع بروح الثقافة المعاصرة من جهة ، والدعوة إلى التجريبية العلمية من جهة

أخرى . إنه يذكر لنا فى كتابه «قصة عقل» أن فكره حين عاد إلى مصر كان قد تبلور فى شعبتين: إحداهما وجوب الأخذ بروح الثقافة الأوروبية المعاصرة ، لعلها تنتهى بنا إلى مثل ما انتهى بأصحابها إليه من وضع الإنسان الفرد فى مكانة تشبه التقديس ، والثانية هى وجوب الدعوة إلى التجريبية العلمية ، لأنها إذا كانت مجرد اتجاه فلسفى هناك فهى بالنسبة للأمة العربية ضرورة ، إذ من شأنها أن تضبط اللفظ فى مجال التفكير العلمى ضبطاً صارماً وهو ما أظننا فى أشد الحاجة إليه .

كما كان مفكرنا شعلة نشاط من النادر أن نجد لها مثيلاً فى حياتنا الثقافية المعاصرة ، قبل سفره إلى انجلترا وكان أيضاً هذا حاله بعد عودته من انجلترا . لقد سافر فى مهمات علمية عديدة إلى كثير من البلدان شرقاً وغرباً . عمل أستاذاً زائراً بأمريكا خلال عامى ١٩٥٣ ، ١٩٥٤م ، كما عمل مستشاراً ثقافيًا بسفارتنا بواشنطن . وسافر إلى الكويت حيث عمل بجامعتها أستاذاً للفلسفة لمدة خمسة أعوام (١٩٦٨ - ١٩٧٣م) ، وتمت دعوته لزيارة أكثر من دولة عربية من بينها الإمارات العربية المتحدة لإلقاء مجموعة من المحاضرات بجامعاتها .

لقد حصل أستاذنا على العديد من الجوائز تكريماً له واعترافاً بدوره الفكرى والثقافى وريادته فى مجال الفكر العربى المعاصر والفلسفى منه على وجه الخصوص . حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٠م عن كتابه «نحو فلسفة علمية» . وحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٥م ، وحصل على جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وهو أول مصرى يحصل على هذه الجائزة . وقد ذكر لى أثناء إحدى مقابلاتنا بمنزله أن منحه هذه الجائزة يدلنا على أن العروبة ثقافة قبل أن تكون سياسة ، وكان هذا موضوع مقالة من مقالاته بجريدة الأهرام . كما حصل على الدكتوراه الفخرية من الجامعة الأمريكية .

هذا بالإضافة إلى رئاسة تحرير مجلة «الفكر المعاصر» وإشرافه على العديد من المجلات الأخرى. ورئاسته للجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة وعضويته باللجان العلمية والفكرية واشتراكه فى الإعداد لكثير من المؤتمرات الفلسفية ومن بينها مؤتمر عن الفيلسوف العربى ابن رشد بالجزائر . لقد كنت مسروراً غاية السرور باشتراكى معه فى وضع كتيب عن آخر فلاسفة العرب ابن رشد ، وكم تضاعف سرورى حين أهديت له كتابى «ثورة العقل فى الفلسفة العربية» اعترافاً بدوره الخلاق والمبدع فى صياغة حياتنا الفكرية ، وحين قمت بالإشراف على مجلد تذكارى صدر عنه بعد رحيله بعدة سنوات . واستفدت من دعوته

إلى التراث ، وبحيث مازلت أقول إن عدد الخرافات التى نجدها فى مؤلفات العرب القدامى تعد أكثر من سكان الدول العربية من مشرقها إلى مغربها .

لقد دعانا زكى نجيب محمود إلى ضروره التعرف على فكر الغرب والاستفادة منه ، وقام من جانبه بترجمة العديد من الكتب ترجمة تعد غاية فى الدقة والأمانة ومن بينها - على سبيل المثال لا الحصر - : الجزءان الأول والثانى من كتاب «تاريخ الفلسفة الغربية» للفيلسوف الإنجليزى المعاصر «برتراند راسل» ، ومجموعة أجزاء من الموسوعة الضخمة «قصة الحضارة» للمفكر الأمريكى ول ديورانت ، وكتاب «المنطق» للفيلسوف الأمريكى جون ديوى ، ومجموعة من محاورات أفلاطون . لقد شملت ترجمة التراث القديم والفكر الحديث والمعاصر أيضاً ، وهذا يعد من جانبه اعترافاً بقيمة الترجمة ودورها فى التنوير تماماً كما حدث فى العصر العباسى ، وما حدث أيضاً فى عصر النهضة الأوروبية .

كان الدكتور زكى نجيب فى دعوته التجديدية حريصاً الحرص كله على أن يبين لنا أهمية الاستفادة من أفكار الأمم الأخرى أى : الانفتاح على حضارة الغرب . إننا نجد ذلك واضحاً سواء فى كتبه الفلسفية أو كتبه التى يغلب عليها أنها تعالج موضوعات أدبية . نعم إننا نجد هذا واضحاً تمام الوضوح فى كتب عديدة تركها لنا هرمنا الفكرى الشامخ ومن بينها : الشرق الفنان ، وتجديد الفكر العربى ، والمعقول واللامعقول ، وحياة الفكر فى العالم الجديد ، وبرتراند راسل ، وديفيد هيوم ، والمنطق الوضعى ، ونحو فلسفة علمية ، وجنة العبيط ، وشروق من الغرب ، وقشور ولباب ، ومجتمع جديد أو الكارثة ، والثورة على الأبواب ، ومن زاوية فلسفية ، وفى حياتنا العقلية ، وفى فلسفة النقد ، وهموم المثقفين ، وثقافتنا فى مواجهة العصر ، وقصة نفس ، وقصة عقل ، إلى آخر تلك الكتب التى نجد فيها دعوة إلى الأخذ بأسباب العلم وأسباب الحضارة ، كما دعانا إلى ذلك أيضاً فى آخر كتبه «حصاد السنين» .

لقد انطلق مفكرنا - وبكل ما يملك من وقت وجهد - نحو البحث فى مشكلة تجديد الفكر العربى ، مشكلة المواكبة بين التراث من جهة وتيار العصر والحضارة من جهة أخرى ، لقد أخلص للبحث فى هذه المشكلات إخلاصاً لا مثيل له . اهتم بالبحث فى هذه القضايا التى ترتبط كل قضية بالأخرى وتقترن بها منذ أربعين عاماً ، ولقد أكد لى فى لقاء تم بيننا قبل رحيله بسنوات على ما سبق أن ذكره فى كتابه (قصه عقل) لقد قال لى إن تفكيره فى المزج بين الثقافة العربية والثقافة الغربية قد بدأ فى عام ١٩٥٦م ، ثم صاغ الفكرة فى عام ١٩٦٠م ، فى

كتابه الشرق الفنان . إن هذا الكتاب يعد خطة تفكير ، أى : خطة بحث فى المشكلة التى وهب لها عمره ، مشكلة الأصالة والمعاصرة وما يدور حولها من البحث فى كيفية تجديد الفكر العربى والبحث فى أفضل الصيغ أو الحلول المناسبة والبحث أيضاً فى كيفية مواكبة تيار الحضارة والحضارة الغربية منها على وجه الخصوص .

تميَّز زكى نجيب محمود ، بحس نقدى غاية فى الدقة والروعة ، حس يجعلنا نقف أمامه فى إجلال وإكبار تماماً كما نقف أمام الأهرامات وأبى الهول . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الحس النقدى هو أهم ما يميز الفكر الفلسفى ، أهم ما يعبر عن خصائص الموقف الفلسفى. إنه الحس الذى يكشف لنا خرافات أشباه المثقفين وأنصار الظلام الذين تعد كتاباتهم جهلاً على جهل، وإن كان أكثرهم لا يعلمون .

ويحلل زكى نجيب محمود الاتجاهات الفلسفية فى العالم مبيناً اهتمامه بقضية الإنسان ، إنه يقول فى كتابه قصة عقل : إذا أمعنت النظر فى الاتجاهات الفلسفية المعاصرة ، ويمكن بلورتها فى أربعة اتجاهات ، وجدت جذرها المشترك هو اتخاذ الإنسان فى حياته الدنيوية محور الاهتمام . وانظر على هذا الضوء إلى تلك الاتجاهات الأربعة : أحدها هو اتجاه الفلسفة التحليلية التى تعنى أكثر ما تعنى بفلسفة العلوم والتى هى الفلسفة السائدة فى بريطانيا ، فما دامت تصب اهتمامها على التفكير العلمى ، فهى بالتالى تقر ذلك الاهتمام على ما هو ذو صلة بحياة الإنسان هنا على هذه الأرض . وثانيها هو اتجاه الفلسفة البراجماتية الذى له السيادة فى الولايات المتحدة الأمريكية وأساسه هو أن الفكرة تعد صحيحة إذا كانت نتائجها نافعة للإنسان ، فليس المهم هو أصل الفكرة من أين جاءت وكيف جاءت ؟ بل المهم ماذا عساها أن تثمر للإنسان من نتائج تنفعه فى حياته ؟ . وثالثها هو اتجاه الفلسفة الوجودية فى غربى أوربا ومدار تلك الفلسفة حرية الإنسان فى القرار الذى يتخذه لنفسه ليكون بعد ذلك مسئولاً عنه مسئولية خلقية . ورابعها هو اتجاه الفلسفة المادية الجدلية السائدة فى شرقى أوربا ، ومحورها هو أن الحياة الثقافية كلها بما فيها القيم الأخلاقية والجمالية ، إنما تولدت عن الحياة الاقتصادية من زراعة أو تجارة وصناعة ، فإذا غيرت من أسس الحياة الاقتصادية المادية تغيرت بالتالى دنيا الثقافة . إذن : ففى مقدورنا أن نشكل العلاقة الاقتصادية تشكيلاً ينتهى بنا إلى إقامة حياة إنسانية تصون للإنسان حقوقه .

ويبين لنا مفكرنا أن الفكر فى الغرب إذا كان اتجاهه الأول هو صون الإنسان من العوامل التى كانت تطحنه وتقهره قهراً ، فإنه من الضرورى -إذن- العمل على نشر مثل هذا الفكر فى بلادنا

وذلك حتى نتمكن من توقير وتقديس مكانة الإنسان وكرامته ، بل لا مفر من قبول النتائج الفرعية التى تنبثق عن تلك الجذور ومنها ما هو خاص بالنظرة العلمية الواقعية إلى الأمور ، ما دامت أموراً لا صلة لها بمشاعر الإنسان الخاصة . ومن هنا جاءت دعوة زكى نجيب محمود إلى الأخذ الصارم بالنظرة العلمية التجريبية مفرقاً فى حياة الإنسان بين مجالين : مجال التفكير العلمى بكل تفريعاته ، ومجال الحياة الوجدانية بشتى جوانبها ، فما يصلح لذلك لا يصلح لهذا ، فلكل منهما مواقف ولكل منهما معايير للرفض أو القبول .

ولم يقف مفكرنا فى دراسته لقضية التجديد ، وخاصة من خلال كتبه : تجديد الفكر العربى ، والمعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى ، وثقافتنا فى مواجهة العصر ، وعربى بين ثقافتين ، وبذور وجذور .. لم يقف عند التراث لمجرد أنه تراث ، كما أنه لم يرفض التراث جملة وتفصيلاً. نعم لم يرفض التراث من أساسه ، كما يزعم نفر من المتسرعين وأشباه الدارسين الذين حشروا أنفسهم بين الدارسين للفكر الفلسفى ، والفكر منهم براء . وليرجع القارئ إلى القسمين اللذين يتألف منهما كتابه الرائع «تجديد الفكر العربى» وخاصة الفصل التاسع من القسم الثانى وموضوعه «قيم باقية فى تراثنا» . وأيضاً فليرجع إلى القسمين الذين يتألف منهما كتابه «المعقول واللامعقول» . إنه يضرب أمثلة من التراث ولا يضرب أمثلة من الهواء الفارغ . إنه يدرس التراث دراسة عميقة وبعد ذلك يرتضى لنفسه أن يقف منه موقف المؤيد لبعض ما فيه من قيم تتفق مع العقل، وموقف المعارض لما فيه من قيم تعبر عن شطحات اللاعقل . ونعتقد أن هذا التمييز قد يكون مفيداً لنا أعظم الفائدة فى كشف ما ارتبط بالأصولية من إرهاب وتخلف وجمود وخاصة عند الخلط بين الدين والعلم ، والدين والسياسة .

لقد أخلص مفكرنا لقضية الأصالة والمعاصرة إخلاصاً بغير حدود كما أشار إلى ذلك توفيق الحكيم . إنه يقول إن قضية الجمع بين أصالتنا وضرورة معايشتنا لعصرنا ربما كانت أهم ما تعرضت له من اهتمامات بالتفكير والكتابة . لقد أصبحت على يقين من أن هذه المسألة هى أم المسائل الثقافية جميعاً . إن هذه القضية هى التى يصح أن نقول حيالها قولة هاملت فى أ زمته النفسية: أن أكون أو لا أكون .. ذلك هو السؤال .

هذا هو مفكرنا العملاق أستاذاً ومفكراً وأديباً .. نقول هذا بصرف النظر عن اتفاقنا معه فى الكثير ، واختلافنا معه فى القليل . إنك لن تستطيع فهم لب فكره ومذهبه إلا إذا قرأت كل ما كتب سطراً سطراً بل كلمة كلمة . لقد دخل تاريخنا الفكرى والثقافى المعاصر من أوسع

الأبواب وأرحبها . شق طريقه وسط الأشواك والصخور ، وترك لنا ثروة فكرية فلسفية أدبية غاية فى العمق . ولن يستطيع مفكر أو أديب أن يغفل أو يتغافل عن هذه الثروة الفكرية.إنها تعد كنزاً فكريًا أبدعه عقل مفكر جبار سعياً وراء نور الضياء الذى يهدينا فى حياتنا . إن أفكاره تعد حية وليست أفكاراً ميتة . والأفكار الحية دون غيرها هى التى توجب الصراع حولها لأنها أفكار شامخة .. أفكار تؤدى إلى إيقاظ العقول حولها .

إنه رائدنا ومفكرنا العظيم . إنه زكى نجيب محمود الذى تعد كتاباته كلها دعوة إلى التمسك بتيار العصر والحضارة . تيار التجديد . تيار العقلانية .. إنها أفكار تدعو إلى نور الحياة ، وبحيث تكون بعيدة تماماً عن ظلام العدم وما يرتبط بالظلام من الصعود إلى الهاوية والعياذ بالله .

رحم الله فقيدنا الكبير وأحسب أن روحه تحلِّق الآن فى السماء فى سعادة وذلك حين تدرك الصدى الكبير لكل كلمة من الكلمات العظيمة التى قال بها زكى نجيب محمود .. وحين تشعر بثناء المثقفين على أفكاره التى تدعونا إلى أن تكون حياتنا فى المستقبل أفضل من حياتنا فى الماضى والحاضر .

(١٠) زكى نجيب محمود .. وحوار الحضارات
(فى الذكرى الثانية عشرة لرحيله)

عاطف العراقى

من النادر أن نجد مفكراً عربيًا معاصراً اهتم بالقضية الكبرى ، قضية الحوار بين الحضارات، مثل ما نجده عند هرم ثقافتنا العربية وعملاق الفكر العربى المعاصر زكى نجيب محمود ، وإذا كنا فى هذه الأيام نعيش ذكرى رحيل الأستاذ والرائد والمعلِّم زكى نجيب محمود ، وفى نفس العام ، العام الحالى نحتفل بمرور قرن من الزمان على مولده ، فإن من الواجب علينا أن نشير إلى نماذج من رؤية زكى نجيب فى مجال حوار الحضارات .

لقد كان موضوع الحوار بين الحضارات ، أبرز الموضوعات التى كانت تشغل فكر رائدنا العملاق . ومن المؤسف أن أشباه الدارسين لفكره وممن يقفون عند السطح ولا ينفذون إلى الجوهر والأساس ، يدفعهم الكسل العقلى إلى الوقوف عند كتاب «تجديد الفكر العربى» لزكى نجيب ، ولا يضعون فى الاعتبار أن اهتمام زكى نجيب بفكرنا العربى قد بدأ منذ السنوات الأولى لكتاباته الأدبية والفلسفية والعلمية . ألم تكن أول مقالة كتبها هى مقالة بعنوان «هجرة الروح» ؟ ألم يكن كتابه عن جابر بن حيان سابقاً فى الزمان على كتابه : تجديد الفكر العربى ؟ ثم من الذى قال إن هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد فى مشروعه الفكرى والثقافى ؟ كلاَّ ثم كلاَّ . . إن من يقولون بذلك ، يعد قولهم نوعاً من التزوير الفكرى، لأنهم لم يفهموا سطراً واحداً فى كتب كثيرة لم تدخل فى صميم التجديد والحوار والعلم والعقلانية ، ومن أمثلتها وعلى سبيل المثال لا الحصر : بذور وجذور ، والشرق الفنان والذى نال إعجاب توفيق الحكيم ، وعربى بين ثقافتين ، وشروق من الغرب ، ومجتمع جديد أو الكارثة . . . إلخ .

بل إن المصيبة الكبرى والكارثة العظمى التى نجدها عند هذا الفريق من أشباه الدارسين ومتخلفى العقول ، أن آخر كتبه - وهو كتاب «حصاد السنين» - يعد من أبرز كتبه فى مجال التأكيد على الحوار بين الحضارات وضرورة الاستفادة من فكر الغرب . نقول هذا ولابد من القول لأننا مازلنا نجد على أرضنا الثقافية من يفسد فيها ، وإن كان أكثرهم لا يعلمون ، لأن ثقافتهم تعد جهلاً على جهل والعياذ بالله . بل إن مفكرنا الكبير زكى نجيب فى العديد من كتبه

التى أورد فيها سيرة حياته الفكرية ، بالإضافة إلى «حصاد السنين» ، ونعنى بها كتابه «قصة نفس» ، وكتابه «قصة عقل» ، كان من خلالها مهموماً بالبحث فى كل جوانب القضية الكبرى: قضية أن أكون أو لا أكون ، قضية الحوار والتواصل بين الحضارات . ولكن ماذا نفعل حيال أناس يقفون عند ظاهر السطور ، لأنهم لا يملكون القدرة على النفاذ إلى ما وراء السطور . يقفون عند السطح ، لأنهم لا يملكون القدرة على الدخول إلى أعمق أعماق فكر زكى نجيب ، وما أعظمه من فكر .. ولكن ماذا نفعل بالنسبة لأناس تحسبهم أساتذة وما هم بأساتذة ، بل أشباه أساتذة ، وأشباه باحثين ؟!

لقد دعانا زكى نجيب محمود من منطلق إيمانه بحوار الحضارات إلى ضرورة التعرف على فكر الغرب والاستفادة منه ، وقام من جانبه بترجمة العديد من الكتب ترجمة تعد غاية فى الدقة والأمانة ومن بينها - على سبيل المثال لا الحصر - : الجزء الأول والجزء الثانى من كتاب «تاريخ الفلسفة الغربية» للفيلسوف الإنجليزى المعاصر برتراند راسل ، ومجموعة أجزاء من الموسوعة الضخمة «قصة الحضارة» للمفكر الأمريكى ول ديورانت ، وكتاب «المنطق» للفيلسوف الأمريكى جون ديوى ، ومجموعة من محاورات أفلاطون .. لقد شملت ترجمة التراث القديم والفكر الحديث والمعاصر أيضاً، وهذا يعد من جانبه اعترافاً بقيمة الترجمة ودورها فى التنوير تماماً كما حدث فى العصر العباسى ، وما حدث أيضاً فى عصر النهضة الأوروبية .

كان الدكتور زكى نجيب فى دعوته إلى حوار الحضارات حريصاً الحرص كله على أن يبين لنا أهمية الاستفادة من أفكار الأمم الأخرى ، أى : الانفتاح على حضارة الغرب ، إننا نجد ذلك واضحاً سواء فى كتبه الفلسفية أو الكتب التى يغلب عليها أنها تعالج موضوعات أدبية .. نعم إننا نجد هذا واضحاً تماماً فى كتب عديدة تردّ بها لنا هرمنا الفكرى الشامخ ومن بينها : الشرق الفنان، وتجديد الفكر العربى ، والمعقول واللامعقول ، وحياة الفكر فى العالم الجديد ، وبرتراند راسل ، وديفيد هيوم ، والمنطق الوضعى ، ونحو فلسفة علمية ، وجنة العبيط ، وشروق من الغرب ، وقشور ولباب، ومجتمع جديد أو الكارثة ، والثورة على الأبواب ، ومن زاوية فلسفية، وفى حياتنا العقلية ، وفى فلسفة النقد ، وهموم المثقفين ، وثقافتنا فى مواجهة العصر ، وقصة نفس ، وقصة عقل. . إلى آخر تلك الكتب التى نجد فيها دعوة إلى الأخذ بأسباب العلم وأسباب الحضارة، كما دعانا إلى ذلك أيضاً فى آخر كتبه «حصاد السنين» . إن هذه الكتب وغيرها من مقالات ودراسات تقوم على إيمانه بحوار الحضارات . لقد انطلق مفكرنا وبكل ما يملك من وقت وجهد نحو البحث فى مشكلة حوار الحضارات ، مشكلة الحوار وليس الصدام بين الحضارات .

لقد أخلص للبحث فى هذه الموضوعات إخلاصاً لا مثيل له . اهتم بالبحث فى هذه القضايا التى ترتبط كل قضية بالأخرى وتقترن بها ، أكثر من أربعين عاماً . ولقد أكد لى فى لقاء تم بيننا بمنزله قبل رحيله بسنوات على ما سبق أن ذكره فى كتابه «قصة عقل» . لقد قال لى إن تفكيره فى المزج بين الثقافة العربية والثقافة الغربية وذلك لكى يقيم حواراً بين الحضارات قد بدأ فى عام ١٩٥٦م ، ثم صاغ الفكرة فى عام ١٩٦٠م ، وذلك فى كتاب «الشرق الفنان» . إن هذا الكتاب يعد خطة تفكير أى خطة بحث فى المشكلة التى وهب لها عمره ، مشكلة الأصالة والمعاصرة وما يدور حولها من البحث فى كيفية تجديد الفكر العربى والبحث فى أفضل الصيغ أو الحلول المناسبة ، والبحث أيضاً فى كيفية مواكبة تيار الحضارة ، والحضارة الغربية منها على وجه الخصوص ، وذلك لكى يتم الحوار بين الحضارات .

ويحلل د. زكى الاتجاهات الفلسفية فى العالم مبيناً اهتمامه بقضية الإنسان . يقول فى كتابه «قصة عقل» : إذا أمعنت النظر فى الاتجاهات الفلسفية المعاصرة - ويمكن بلورتها فى أربعة اتجاهات - وجدت جذرها المشترك هو اتخاذ الإنسان فى حياته الدنيوية محور الاهتمام . وانظر على هذا الضوء إلى تلك الاتجاهات الأربعة : أحدها هو اتجاه الفلسفة التحليلية التى تعنى أكثر ما تعنى بفلسفة العلوم والتى هى الفلسفة السائدة فى بريطانيا ، فما دامت تصب اهتمامها على التفكير العلمى ، فهى بالتالى تقر ذلك الاهتمام على ما هو ذو صلة بحياة الإنسان هنا على هذه الأرض . وثانيها هو اتجاه الفلسفة البراجماتية الذى له السيادة فى الولايات المتحدة الأمريكية وأساسه هو أن الفكرة تعد صحيحة إذا كانت نتائجها نافعة للإنسان ، فليس المهم هو أصل الفكرة من أين جاءت وكيف جاءت ؟ بل المهم ماذا عساها أن تثمر للإنسان من نتائج تنفعه فى حياته ؟ . وثالثها هو اتجاه الفلسفة الوجودية فى غربى أوربا ، ومدار تلك الفلسفة حرية الإنسان فى القرار الذى يتخذه لنفسه ليكون بعد ذلك مسئولاً عنه مسئولية خلقية . ورابعها هو اتجاه الفلسفة المادية الجدلية السائدة فى شرقى أوربا ، ومحورها هو أن الحياة الثقافية كلها بما فيها القيم الأخلاقية والجمالية ، إنما تولدت عن الحياة الاقتصادية من زراعة وتجارة وصناعة ، فإذا غيرت من أسس الحياة الاقتصادية المادية تغيرت بالتالى دنيا الثقافة . إذن : ففى مقدورنا أن نشكِّل العلاقة الاقتصادية تشكيلاً ينتهى بنا إلى إقامة حياة إنسانية تصون للإنسان حقوقه . ويبين لنا مفكرنا أن الفكر فى الغرب إذا كان اتجاهه الأول هو صون الإنسان من العوامل التى كانت تطحنه وتقهره قهراً ، فمن الضرورى -إذن- العمل على نشر هذا الفكر فى بلادنا ؛ لنتمكن من توقير وتقديس مكانة الإنسان وكرامته ، بل لا مفر من قبول النتائج الفرعية التى تنبثق عن

تلك الجذور ومنها ما هو خاص بالنظرة العلمية الواقعية إلى الأمور، مادامت أموراً لا صلة لها بمشاعر الإنسان الخاصة . ومن هنا جاءت دعوة زكى نجيب إلى الأخذ الصارم بالنظرة العلمية التجريبية مفرقاً فى حياة الإنسان بين مجالين : مجال التفكير العلمى بكل تفريعاته ، ومجال الحياة الوجدانية بشتى جوانبها ، فما يصلح لذلك لا يصلح لهذا، فلكل منهما مواقف ولكل منهما معايير للرفض أو القبول . معنى هذا أن المطلوب هو الحوار وليس الصدام .

هذا هو مفكرنا العملاق أستاذاً ومفكراً وأديباً .. نقول هذا بصرف النظر عن اتفاقنا معه فى الكثير ، واختلافنا معه فى القليل . إنك لن تستطيع فهم لب فكره ومذهبه إلا إذا قرأت كل ما كتب سطراً سطراً بل كلمة كلمة .. لقد دخل تاريخنا الفكرى والثقافى المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها . لقد شق طريقه وسط الأشواك والصخور ، وترك لنا ثروة فكرية فلسفية أدبية غاية فى العمق . ولن يستطيع مفكر أو أديب أن يغفل أو يتغافل عن هذه الثروة . إنها تعد كنزاً فكريًّا أبدعه عقل مفكر جبار سعياً وراء نور الضياء الذى يهدينا فى حياتنا . إن أفكاره حية وليست أفكاراً ميتة . والأفكار الحية دون غيرها هى التى توجب الصراع حولها لأنها أفكار شامخة ، أفكار تؤدى إلى إيقاظ العقول حولها . إنه رائدنا ومفكرنا العظيم الذى تعد كتاباته كلها دعوة إلى التمسك بتيار العصر والحضارة . تيار التجديد . تيار العقلانية . إنها أفكار تدعو إلى نور الحياة ، بحيث تكون بعيدة تماماً عن ظلام العدم وما يرتبط بالظلام من الصعود إلى الهاوية والعياذ بالله . إن أفكاره حول ضرورة الحوار بين الحضارات يجب أن نضعها فى اعتبارنا إذا أردنا تصوُّر أيديولوجية عربية تقوم على رفض كل الأفكار الزائفة مثل القول بالتعارض بين التقدم العلمى والأخلاق ، والهجوم على الحضارة الأوربية ، وإغلاق النوافذ أمام الحضارات الأخرى . نعم إنها أفكار زائفة كشف عن فسادها مفكرنا الراحل زكى نجيب محمود . نقول هذا ولابد من القول به ونحن نحتفل بالذكرى الثانية عشرة لرحيله وأيضاً بذكرى مرور قرن من الزمان على مولده .. إنه الرائد والأستاذ والمعلِّم والمفكر العملاق زكى نجيب محمود .

(١١) زكى نجيب محمود والرؤية المستقبلية التنويرية
(فى ذكرى مرور أربعة عشر عاماً على رحيله)

عاطف العراقى

إذا كان مفكرنا الكبير زكى نجيب محمود قد توفى فى التاسع من سبتمبر عام ١٩٩٣م ، فإن خير احتفال بذكراه سواء بمصر التى ولد بها أو سائر بلدان العالم العربى من مشرقه إلى مغربه ، والتى استفادت استفادة هائلة وحتى الآن من كتبه وما أعمقها ، وأفكاره التى تعد ثروة ثراءً فكريًّا بلا حدود . إن خير احتفال هو أن نتذكر الدروس التى تعلمناها من أفكار مفكرنا العملاق واتجاهات رائدنا الكبير . ويقينى أننا سنجد فيها الخير كل الخير، وستكون كالبوصلة التى تحدد اتجاهنا ولم لا ؟ وهى تركز بالدرجة الأولى على الرؤية المستقبلية ، الرؤية التى تحاول أن يكون مستقبلنا أفضل من حاضرنا ، وحاضرنا أفضل من ماضينا .

أقول هذا ولابد من القول به ؛ لأننى عرفت الرجل عن قرب وقرأت كل ما كتب ، وعشت مع ترجماته لكتب عديدة وتعد غاية فى الأهمية ، وحللت كل أبعاد معاركه الفلسفية والأدبية والفكرية . وبحيث أقول وبعد أن دعانا الرجل من خلال كل ما كتب إلى التركيز على المستقبل، أى : النظر إلى الأمام وليس إلى الخلف . فالنظر إلى الأمام أهم خصائص المجدد فى حين أن الرجوع إلى الوراء هو ما نجده عند المقلِّد الذى يريد أن يقف عند التراث القديم لمجرد أنه تراث ، دون أن يضع فى اعتباره أن التراث رغم أهميته يعد بعضه مليئاً بآلاف الأخطاء ؛ لأنه إنتاج بشر غير معصومين من الخطأ ، إنه بشر مثلى ومثلك ؛ ولكن ماذا نفعل لأناس يجدون سعادتهم فى حياة الكهوف والمغارات كما يفعل الخفافيش أنصار الظلام والأماكن المهجورة ؟

وفى سبيل سعى مفكرنا نحو الرؤية المستقبلية التنويرية نجده يخوض العديد من المعارك الفكرية ومن بينها معركة العلمانية ومعركة الحجاب ومعركة أخلاق القرية ومعركة خرافة الميتافيزيقا ، والأصالة والمعاصرة ، والتطرف الدينى ، والمناقشات البيزنطية ، وحقيقة تدريس الفلسفة فى مدارسنا وجامعاتنا . . إلى آخر المعارك الفكرية والتى تكشف لنا عن عقلية رائدة، عقلية مستنيرة ، قلَّ أن نجد لها نظيراً على امتداد تاريخنا الفكرى العربى المعاصر . نقول هذا وبصرف النظر عن اتفاقنا تارة مع مفكرنا الكبير أو اختلافنا تارة أخرى .

وكم دعانا مفكرنا العملاق وفى سبيل السعى نحو الرؤية المستقبلية التى تقوم على التنوير، إلى أن ننظر بعقولنا ، وإلى أن ننظر بعين العصر عند دراسة تراث الأقدمين . لقد ذهب فى كتابه «المعقول واللامعقول» إلى أننا نعد أحراراً إذا اخترنا من التراث العربى المعقول وحده ؛ لأن المعقول وليس اللامعقول هو الذى يجاوز حدود زمانه ومكانه ، فما قد قبله العقل يوماً فإنه يقبله كل يوم ، وأما ما أرضى اللاعقل فينا يوماً فقد لا يرضيه حين تتغير الظروف .

إن وصل الحاضر بالماضى -فيما يرى مفكرنا- لا يتحقق إلا عن طريق الجانب العاقل ، وإذا كنا نجد نوعين للكتابة فى الماضى : إحداهما أن ينظر المؤرخ للعصر الذى يؤرخ له بأعين أبنائه ومن خلال ظروفه ، والأخرى أن ينظر إليه بعين عصره . فقد اختار أستاذنا -فيما يقول باستمرار- الطريقة الثانية فى النظر إلى تراث الأقدمين ، وهذا قد يساعد على إيجاد رؤية مستقبلية تنويرية .

دعانا الدكتور زكى نجيب إلى فتح النوافذ على الفكر الغربى وبحيث نمزج بينه و بين فكرنا العربى ، وعلى وجه التحديد : المعقول منه . إن عدم فتح النوافذ يؤدى إلى جمود الفكر ، يؤدى إلى الظلام وبئس المصير . لقد خاض عدة معارك حول ما يطلق عليه «الغزو الفكرى» وبيَّن لنا أنه لا يوجد ما يسمى بالغزو الفكرى؛ بل إن الفرد منا حين يهاجم الحضارة الغربية فإن سلوكه يفضح أقواله ؛ فليس بالإمكان أن نستغنى عن منجزات الحضارة الغربية .. هل يصح أن أهاجم الحضارة من خلال ميكروفون ، والميكروفون من ثمار الحضارة ؟ هل يصح أن أهاجم الحضارة من خلال صفحات كتاب مطبوع ، والمطبعة ثمرة من ثمرات الحضارة؟ وهكذا إلى آخر الأمثلة التى تبين لنا انفتاح الدكتور زكى نجيب على طريق العلم ، طريق الحضارة ، طريق التنوير . وكم قارن بين حركة الترجمة فى العصر العباسى وبين ما فعله رفاعة الطهطاوى فى مجال الترجمة والاهتمام بها فى العصر الحديث .

واهتمام رائدنا زكى نجيب بالفكر العربى ، يعد اهتماماً لا حد له . أقول هذا وأؤكد على القول به ردًّا على أناس من أشباه الدارسين ، الذين يزعمون أن اهتمامه قد جاء عارضاً ولم يكن أصيلاً . لقد كتب عن «جابر بن حيان» منذ ما يقرب من نصف قرن من الزمان . وكتب عن «الشرق الفنان» وكتب عشرات الكتب فى مجال فكرنا العربى، الأدبى منه والفلسفى ، وذلك خلال أكثر من ثلاثين عاماً . فهل نقول بعد ذلك إن اهتمامه جاء عارضاً؟ كلَّا ثم كلَّا .

لقد ظل الرجل طوال حياته الفكرية كما قلنا مدافعاً عن الرؤية المستقبلية وكتب آلاف الصفحات فى هذه المجالات ، ومن بينها وعلى سبيل المثال لا الحصر : المنطق الوضعى ، ونحو فلسفة علمية ، وشروق من الغرب ، وقشور ولباب ، والثورة على الأبواب . وفى مجال الفكر العربى : تجديد الفكر العربى ، والمعقول واللامعقول ، وثقافتنا فى مواجهة العصر. أليست هذه الكتب وعشرات أخرى من كتبه تعد دستوراً لنا نحن العرب ، إذا أردنا تجاوز الماضى والحاضر، وأردنا البحث عن مستقبل أكثر إشراقاً وضياءً ؟ .. نعم ثم نعم . إن واجبنا المقدس أن نترك الظلام وننشد النور .

وبيَّن لنا رائدنا الكبير فى كتابه «عربى بين ثقافتين» أن ثقافة الفرد أو ثقافة الشعب فى مجموعه لم تخلق للزينة والزخرف والمباهاة والتفاخر ، وإنما لكى تكون أداة فعل حقيقى على أرض الواقع وتحت سمائه . إنه الفعل الذى يمهد السبيل نحو الصحة والقوة والعلم والإبداع. فليس المهم فى الحياة الثقافية أن نقول : هذه ثقافتنا وتلك ثقافة الغرباء ، وإنما المهم هو أن نقول : هذا عنصر ضعيف فى بنائنا الثقافى لا يؤدى بنا إلى عزة فلنستبدل به ذلك العنصر لأنه أفعل أثراً ..

ومن الواضح أن الدكتور زكى نجيب محمود ينادى بالربط بين العلم والعمل ، بين النظر والسلوك . وهذا يعد شيئاً متوقعاً ؛ إذ أنه يضع يده على أسباب ضعف الأمة العربية ، كما أنه أيضاً يعد متأثراً بالثقافة الإنجليزية والثقافة الأمريكية البراجماتية .

إن الفكر فى الغرب إذا كان اتجاهه الأول هو صون الإنسان من العوامل التى كانت تطحنه وتقهره قهراً ، فإنه من الضرورى -إذن- العمل على إيجاد مثل هذا الفكر فى بلادنا ؛ وذلك حتى نتمكن من توقير وتقديس مكانة الإنسان وكرامته ، ولا مفر من قبول النتائج الفرعية التى تنبثق من تلك الجذور ومنها ما هو خاص بالنظرة العلمية الواقعية إلى الأمور ما دامت لا صلة لها بمشاعر الإنسان الخاصة .. ومن هنا جاءت دعوة زكى نجيب محمود إلى الأخذ الصارم بالنظرية العلمية التجريبية مفرِّقاً فى حياة الإنسان بين مجالين : مجال التفكير العلمى بكل تفريعاته ، ومجال الحياة الوجدانية بشتى جوانبها . فما يصلح لذلك لا يصلح لهذا ؛ فلكل منهما مواقف ولكل منهما معايير للرفض أو القبول . وهذا كله -فيما نرى- إنما جاء من منطلق رؤية مستقبلية تقوم على النور والتنوير .

لقد أدرك الرجل بثاقب نظره ومن منطلق إيمانه بالرؤية المستقبلية التنويرية أنه ليس من

المفيد إطلاقاً لأمتنا العربية الوقوف عند التراث لمجرد أنه تراث ، والبكاء على الأطلال ؛ لأن التراث يعد نتاجاً لأفراد البشر مثلى ومثلك . والبشر ليسوا كالقديسين . إنهم معرضون للخطأ فى كل زمان وكل مكان . وبحثوا فى قضايا ومشكلات عفا على بعضها الزمن وأصبح بعضها غير مناسب إطلاقاً لعصرنا الذى نحياه ولمستقبلنا الذى ننشده وبحيث يكون أفضل من الماضى ومن الحاضر أيضاً . بل نقول من جانبنا إن التراث الذى يحلو للبعض إقامة هالات المجد حوله ، نجد فى بعضه كمًّا من الأخطاء لا أكون مبالغاً إذا قلت إن عددها يفوق عدد سكان الدول العربية من مشرقها إلى مغربها .

غيرُ مجدٍ فى ملَّتى واعتقادى إهمال أفكار زكى نجيب . لقد قال بما قال به من منطلق رؤية تنويرية مستقبلية تريد لمصر التقدم دوماً ، وتريد للعرب أن يصيروا إلى حالة أفضل من حالتهم فى الماضى وحالتهم فى الحاضر . لقد قال زكى نجيب فى مقالة نشرت بالأهرام منذ زمان طويل: إن العبرة بالتكنولوجيا وليس بالكلامولوجيا. والتكنولوجيا نجدها فى الغرب بصفة خاصة، أما عندنا نحن العرب فنجد السائد هو الكلامولوجيا ، وذلك حين يتكلمون ويسرفون فى الكلام حول قضايا لفظية ومشكلات زائفة خادعة ، ويتكلمون فى الخرافة أكثر بكثير جدًّا من كلامهم عن العلم وتطبيقاته التكنولوجية .

فلنقم فى كل زمان وفى جميع بلداننا العربية من مشرقها إلى مغربها بالاحتفال بمفكرنا الرائد ، هرم مصر الثقافى . إنه ابن بار لمصر والعروبة ، وقدم لبلداننا الكثير ، ومن واجبنا -إذن- أن نبادله حبًّا بحب وعطاء بعطاء .

(١٢) جزء من حوار تم إجراؤه معى عن حياتنا الفكرية وتأثرى بالمفكر زكى نجيب محمود

إننى أدرك تماماً أن رائدنا زكى نجيب محمود قد خاض العديد من المعارك الفكرية والتى تعد على درجة كبيرة من الأهمية . لم تكن تلك المعارك من نوع المعارك التى تثار الآن ، المعارك المفتعلة والتى تكشف عن درجة كبيرة من التخلف العقلى ونقص فى الذكاء ، بل إنها كانت معارك تحتل درجة كبيرة من الأهمية وستظل أهميتها باقية أبد الدهر وبحيث نقول إننا لا نتصور تاريخاً فكريًا لمصر المعاصرة وعالمنا العربى إلا إذا قمنا بتسجيل كل أقواله حول تلك المعارك الفكرية ، فما أعظمها وما أروعها !!

لقد أدركت من خلال الدروس التى تعلمتها من عملاق الفكر وهرم ثقافتنا العربية المعاصرة زكى نجيب محمود أهمية الاستفادة من الندوات الفكرية وعلى رأسها ندوة عباس محمود العقاد وخاصة أننى أعلم مقدار الحب الذى يكنه زكى نجيب للعقاد . لم أتخلف عن حضور ندوة من ندوات العقاد إلا فى بعض الحالات القليلة . ومن المؤسف أن أكثر من يتحدثون عن العقاد وندوته الفكرية الأسبوعية ، كان من النادر أن ألقى واحداً منهم . ألا يعد هذا دليلاً على الكذب ، الكذب الذى ساد أوساطنا الثقافية . ويشاء القدر أن أعمل بأسوان ثلاث سنوات ولم أتخلف خلالها عن حضور ندوة من ندوات العقاد والتى كانت تتم مرتين كل أسبوع طوال شهر يناير من كل عام . لقد أدركت أهمية حضور ندواته من خلال حديث زكى نجيب محمود عنها .

وما يقال عن ندوة العقاد ، يقال عن غيرها من المؤسسات الفكرية الأكاديمية ، فقد تحدث الدكتور زكى نجيب عن الأب جورج قنواتى بكل احترام وتقدير ، وأدركت من خلاله الدور العظيم والرائد للأب قنواتى مدير معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومينكان بالقاهرة ، وكنت حريصاً على الاستفادة من مكتبة الدير والتى تعد إحدى أهم المكتبات فى الشرق الأوسط من حيث الدقة والنظام وشمول المعرفة وقد قضيت بالدير خمس سنوات تلميذاً ومعلماً وراغباً فى القراءة المستمرة (من عام ١٩٦٩ حتى عام ١٩٧٤م) .

لقد تكشفت لى عوالم جديدة - كما قلت - من خلال صلتى العلمية المستمرة بزكى نجيب محمود .. لقد أدركت من خلاله أهمية العزلة والبعد عن المناصب الإدارية الزائفة . كان ينتهى من محاضراته بالجامعة وبعد دقائق قليلة يكون داخل منزله قارئاً متأملاً . لقد أثر هذا السلوك فى نفسى حتى الآن وخاصة بعد أن أصبح الناس غير الناس ، وندر وجود أخيار الناس أمام جحافل الأشرار .

وأكثر مواقفى فى التراث قد تعلمتها من زكى نجيب محمود . لقد درس تراثنا دراسة دقيقة فاحصة وإن كان أكثر الناس لا يعلمون . وكم كنا نتناقش حول قضايا التراث ساعات وساعات وطوال سنوات عديدة . لقد كشف عن جوانب مضيئة من تراثنا ، ونبَّه إلى المساحات المظلمة والتقليدية فى تراثنا فى كتبه : (المعقول واللامعقول ، وعربى بين ثقافتين ، وقيم من التراث، وتجديد الفكر العربى . . إلخ) وكنت بعد قراءتى لما يكتبه أتناقش معه وأدرك بعد المناقشة أن العيب -إذن- ليس فى التراث ، ولكن العيب فى الفهم الخاطئ للتراث. وكنت أطبق على هذه الحالة قول الفيلسوف الألمانى شوبنهور حين جاءته الأنباء بأن كتاباً من كتبه لم يجد قبولاً لدى القراء ، وتم بيعه ورقاً تالفاً لكى يستخدم فى حزم البضائع . لقد ذهب شوبنهور إلى القول بأن كتاباً مثل هذا كمرآة ، إذا نظر فيها حمار ، فهل نتوقع أن يرى فيها ملاكاً ؟! وهل إذا اصطدم رأس أجوف بكتاب ، أيكون الأجوف هو الكتاب ؟ كلَّا ثم كلَّا ، فقد يكون الأجوف هو القارئ للكتاب .

ففى تراثنا مساحات مظلمة وكم هائل من الخرافات تزيد على عدد سكان الدول العربية ، ولكن لا يصح أن ننكر وجود النور والتنوير داخل بعض كتب التراث، وهل يمكن أن نقلل من المساحات المضيئة عند إخوان الصفا وعند ابن رشد وعند أبى العلاء المعرى وابن الرومى والمتنبى . أليست أقوال هؤلاء أفضل ألف مرة من الكلمات المتقاطعة التى نجدها عند أناس من أشباه الكتَّاب والأدباء فى تاريخنا المعاصر ، منهم من قضى نحبه ومنهم من لا يزال على قيد الحياة ، وقد قاموا بتسويد آلاف الصفحات التى تكشف عن جهلهم الفاضح وتخلفهم الشديد. لقد تعلمت بعض أبعاد هذا الدرس من معلمى ورائدى زكى نجيب .. وسأظل ما حييت متمسكاً بهذا الدرس للتمييز بين الأدباء وأشباه الأدباء .

كنت دائماً أرجع إلى زكى نجيب محمود قبل إقدامى على القيام بأى عمل من الأعمال الفكرية ، لأننى أعتقد أنه كان يمثل النور والضياء ، يمثل البوصلة الفكرية التى يجب أن

يهتدى بها كل مشتغل بالفكر وقضاياه ، بالثقافة ومشكلاتها . وحينما طُلب منى إلقاء محاضرة عنه بقصر الثقافة بدمياط فى مناسبة مرور ثمانين عاماً على مولده ، سعيت إلى منزله للاستفسار منه عن بعض الإشكالات التى قد تثار عن طريق أسئلة الحاضرين ومن بينها علاقة الوضعية المنطقية بتجديد الفكر العربى ، وأكد لى على ما كنت أعتقد به من أنه لا تعارض بينهما وهذا على الخلاف من أقوال أشباه الباحثين . وقد حدث ما توقعته ، فقد جاءت أكثر الأسئلة حول هذه الإشكالية سواء فى محاضرتى عنه عام ١٩٨٥م ، أو محاضرتى عام ١٩٨٦م أثناء حفل تكريم بدمياط وكان حاضراً حفل التكريم .. ولم تشهد دمياط فى تاريخها القديم والحديث حدثاً ثقافيًا مثل الحفل الذى تم يوم تكريمه .

وقد سعيت إلى منزله للتهنئة بجائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، خاصة أنه أول مصرى يحصل على تلك الجائزة الكبرى . ولا زلت أذكر قوله بأن منحه هذه الجائزة هو دليل على أن العروبة ثقافة قبل أن تكون سياسة .

تعلمت من زكى نجيب محمود ضرورة أن يهتم المثقف بقراءة الكتب الأدبية وكم توجد خصائص مشتركة تجمع الفكر الفلسفى والفكر الأدبى نجد هذا عند القدامى أمثال المتنبى وأبى العلاء المعرى وابن الرومى وأبى حيان التوحيدى والذى يقال عنه : فيلسون الأدباء وأديب الفلاسفة ، وعند كل من يمثلون أدب التفسير وليس أدب التعبير ، ونجده عند المحدثين من أمثال زكى نجيب محمود ، وول ديورانت صاحب «قصة الحضارة» ، وطه حسين الرائد الأول للتنوير فى مصرنا المعاصرة وعالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه .

أدركت من خلال أقوال زكى نجيب أهمية أن ننظر إلى النقد الأدبى كعلم . فالأدب فن ، ولكن النقد الأدبى يعد علماً . ويقينى أننا إذا وضعنا ذلك فى اعتبارنا ، فإننا سنستطيع الكشف عن ضحالة وتفاهة كثير من الأعمال الأدبية .

وكم كان الدكتور زكى نجيب حريصاً على أن يكشف لى عن الفرق بين الريادة أو القدوة الحقيقية ، والريادة الزائفة الكاذبة . إن طه حسين لم يصبح طه حسين إلا لأنه فعل واجتهد وكافح حتى أصبح طه حسين ، وما فعله طه حسين نجده عند العقاد وغيرهما من الرواد الحقيقيين . أما الآن فقد أصبحت القدوة غير القدوة . الريادة غير الريادة . لقد أصبحت القدوة عند فتاة اليوم راقصة من الراقصات .. أصبحت القدوة عند شاب اليوم لاعباً من لاعبى كرة القدم .. إن هذا دليل على أننا نهتم بأرجلنا قبل أن نهتم بعقولنا !!

ومن أعظم العبارات التى تتعلق بالمجال الذى نتحدث عنه الآن ، العبارة المهمة التى ذكرها زكى نجيب فى آخر كتابه «حصاد السنين» .. إنها عبارة يجب أن نقف عندها ونتأمل فى كل كلمة من كلماتها .. يقول زكى نجيب محمود (ص ٤٢٤ ، ٤٢٥) :

«إن عندنا وعند أمثالنا - ممن ضحلت معلوماتهم الصحيحة ، فقلَّ وعيهم بنفس المقدار - تكثر عملقة الأقزام ، إذ ليس على القزم الطموح برغم جهله وقصوره إلا أن يستخدم وسائل الإعلام لصالحه ، فما أسرع ما يتحول فى خيال الجماهير وفى وهم الحاكمين إلى عملاق حتى يستطيع أن يكون عالماً بغير علم ، أديباً بلا أدب ، أىَّ شىء بغير شىء . وتتصل بعملقة الأقزام عملية أخرى قد تستوجبها الظروف فيلجأ إليها القزم الطموح ، وهى عملية يجوز تسميتها كما أسماها صاحبنا ذات يوم فيما كتب «قرصنة فى بحر الثقافة» . فالقراصنة يخطفون أموال ضحاياهم وبضائعهم لتصبح ملكاً لهم ، وكذلك يفعل قراصنة الثقافة فى حياتنا . فليس المهم عند أحدهم أن يقوم هو بالعمل ، بل المهم هو أن يضع عليه اسمه اغتصاباً» .

أذكر أننى تحدثت مع معلمى زكى نجيب طويلاً حول هذه العبارة وكم ذكرت له مجموعة من الأسماء المشهورة والذين يدخلون فى مجال القرصنة ، ولا أجد داعياً الآن لتحديد أسمائهم أو الإشارة إليهم . كنت أتحدث مع زكى نجيب عن الأساليب الملتوية والتى من خلالها يحاول أشباه المثقفين التأكيد للجمهور بأنهم من المثقفين ، وذلك على الرغم من عدم وجود صلة بينهم وبين الثقافة من قريب أو من بعيد ، فالثقافة منهم براء . كنت أتحدث معه عن ضرورة وجود محاكم للغش الفكرى ، إذ من المؤسف أن نجد محاكم للغش التجارى ولا نجد محاكم للغش الفكرى ، وكأن بطوننا ومظهرنا الخارجى أهم لدينا نحن العرب من عقولنا وفكرنا ووجداننا.

نعم ، لقد استفدت من زكى نجيب استفادة بغير حدود ، كما استفدت منه مجموعة من الآراء حول قضية الأصالة والمعاصرة ، وأعتقد - تأكيداً على ما قاله توفيق الحكيم - أننا لا نجد فى تاريخنا الفكرى المعاصر من اهتم بهذه القضية قدر اهتمام زكى نجيب . لقد كان من المفروض أن نتبنى أفكار الرجل ونخلص كل الإخلاص فى دراستها ، لأنها على رأس قضايانا الفكرية وتعد من أهم مطالبنا الفكرية ، ولكننا للأسف الشديد لم نفعل ذلك لأننا نعيش - كما قال توفيق الحكيم فى تحيته التى وجهها إلى زكى نجيب فى عيد ميلاده الثمانين - فى مجتمع

الصراصير التى تتقاتل مع بعضها البعض ، وليس فى مجتمع النمل الذى تتعاون فيه كل نملة مع الأخرى .

تعلمت من زكى نجيب أن لا أكتب إلا ما أعتقد به ، ولا أتحدث إلا عن إيمان بما أراه صواباً . فأين نحن الآن من دروس زكى نجيب ، وقد تحول أكثرنا إلى تجنيد قلمه لترسيخ التخلف الفكرى جرياً وراء بعض دول البترول ، وارتباط الدولار بالبترول ، وما أدراك ما الدولار ، وسحر الدولار . لقد أصبحت مساحة الفكر التقليدى الرجعى الذى يمثل اللامعقول أضعاف أضعاف مساحة الفكر التقدمى المستنير .. أصبحت الكتابة عن ابن تيمية وارتباط فكره بالاتجاه الرجعى تدر على صاحبها آلاف الدولارات ، وهذا على العكس تماماً من الكتابة عن أصحاب الفكر المستنير !!.

لم يتقلد زكى نجيب محمود طوال حياته منصباً من المناصب . وأقول إنه كان على حق تماماً ، إذ نجد التعارض التام بين أمور المنصب والإدارة ، وبين الاهتمام بالفكر وقضاياه . ولن نجد فى تاريخنا المعاصر مفكراً من المفكرين استطاع أن يجمع بين المنصب والجوانب الفكرية . لقد تعلمت ذلك من زكى نجيب محمود .

نعم لقد استمرت المناقشات بيننا سنوات طويلة اقتربت من أربعين سنة . وأقول بأننى لا أتصور مثقفاً إلا وأن يقرأ كل ما كتب زكى نجيب . إنه هرم ثقافتنا العربية . ومن المنطقى أن نجد العديد من الكتب والرسائل العلمية التى تهتم بفكره الثاقب وآرائه الناضجة ، وبعضها تحت إشرافى فى أكثر من جامعة من الجامعات المصرية . من المنطقى أن تدور مناهج الفكر العربى الحديث حول زكى نجيب وآراء زكى نجيب ، لأنه دخل تاريخنا الفكرى من أوسع الأبواب وأرحبها . لقد اعتز بمصر وأخلص لها إخلاصاً بغير حدود ، وكم كان حريصاً على أن يكشف لى أننا إذا وجدنا مجلة عربية تصدر فى هذه الدولة أو تلك ، فإن مصريتها تتمثل فى كون أكثر كتابها من المصريين .

كان النقاش بيننا مستمرًّا ودائماً .. وقد اتفقنا فى أكثر الآراء واختلفنا فى قلة قليلة منها . اتفقنا حول كل آرائه فى القضايا الكبرى كقضية الغزو الثقافى وأنها قضية زائفة ، وقضية التقدم العلمى والأخلاق ، وقضية موقفنا من الغرب . كل هذه قضايا أتفق مع أستاذى فى كل رأى قاله حولها واختلفنا حول بعض الجزئيات ومنها دور بعض الأعلام القدامى ، فإذا كشف عن أهمية

أبى حامد الغزالى فى مجال من المجالات ، فإننى أقول إن الغزالى يقف على قمة عصر الرجعية ، لأنه حارب الفلسفة والفلاسفة . واختلفنا حول موضوع ترجمة الكتب الطبية والتدريس بالعربية وكان يرى أنه من الضرورى ترجمة الكتب الطبية ويقدم الحجج الدقيقة على مشروعية هذا العمل وأهميته ، وكنت أقول بأنه من الضرورى أن يتم تدريس الطب باللغة الأجنبية حتى لا نجد قصوراً فى معلومات الطلاب، إذ أن الطب لا يتقدم حالياً إلا فى البلدان الأوروبية .

لقد وضع الدكتور زكى نجيب يده على أسباب مشكلاتنا الفكرية والاجتماعية ، وكم استفدت منه الكثير . لقد كان حكيماً فى كل أقواله . إن هذه الأقوال تعد ثمرة لذكائه الحاد وقراءته المستمرة ، القراءة التى امتدت إلى ما يقرب من سبعين عاماً . لم يكن زكى نجيب محمود معبراً فى حياته عن نوع من الأنانية ، بل كان كالشمعة التى تحترق لتنير الطريق أمام الآخرين . لقد أخلص للفكر إخلاصاً بغير حدود ، وشجع تلاميذه وفتح لهم منزله وضحَّى بالوقت الثمين لكى ينير لهم الطريق وخصص مجموعة من الجوائز المادية لنوابغ الطلاب ، منها جائزته التى خصصها لقسم الفلسفة بآداب القاهرة ، وجوائز أخرى لم يشأ أن يعلن عنها وأجد حرجاً فى ذكرها .. وقد أوصانى بعدم الحديث عنها لأنه لا يريد الضجة الإعلامية ولا الحديث عن نفسه .

لقد كان يتحدث عن طلابه أكثر من الحديث عن فكره الخالد . وهل أنسى ما قاله عنى فى أكثر من برنامج من البرامج الإذاعية والتليفزيونية . هل أنسى ما كتبه عنى ، وكل سطر من سطور خطاباته يعد درة من درر أدبنا الرفيع . هل أنسى استقباله الحافل لكتبى التى قمت بتأليفها ، والتى قمت بالإشراف على بعضها . ويوم صدر الكتاب التذكارى عن مؤرخ الفلسفة «يوسف كرم» والذى ظُلم حيًّا وظُلم ميتاً ، احتفل بالكتاب احتفالاً بغير حدود . وذكر لى أنه يعد من أفضل الكتب التذكارية التى صدرت بمصر وعالمنا العربى . وهذا القول من جانبه يعد تشجيعاً لى بغير حدود لأن هذا الكتاب قد صدر تحت إشرافى وبعد أن قام د. زكى بتكليفى بهذا العمل فى فترة رئاسته للجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة .

إننى أفخر بأننى كنت واحداً من طلابه ومريديه . وإذا كنا نجد بعض من تلقوا العلم على يديه قد تحولوا إلى وحوش كاسرة تطعن فى الرجل وفى أفكاره ، فلهم دينهم ولنا دين ... وماذا ننتظر منهم وهم يدخلون فى دائرة الأشباه ، دائرة أنصاف أو أرباع المثقفين !! .. ورحم الله العقاد حين كان يشير ونحن نجلس إليه ونتعلم منه ، يشير إلى عشرات الكتب التى تبحث فى

علم الحشرات ، ويقول لنا إنه حريص على قراءتها حتى يتعرف على سلوك الحشرات الأدبية .

ومن مصادفات القدر أننى فى سنوات التعليم الأولى كنت أقرأ لزكى نجيب محمود وحين حصلت على الدرجة النهائية فى الفلسفة فى السنة التوجيهية بمدرسة دمياط الثانوية، كانت الجائزة المخصصة لذلك مجموعة من الكتب من بينها كتاب «آثرت الحرية» تأليف كرافتشنكو وترجمة زكى نجيب محمود ، ثم بعد سنوات قليلة وجدت الرجل الإنسان ، وجدت زكى نجيب محمود يدخل علينا قاعة من قاعات الدرس بآداب القاهرة ، ليلقى علينا أول محاضرة من محاضراته .

من واجبنا إذا أردنا لأنفسنا حياة الفكر كما ينبغى أن يكون ، أن نقف عند كل كلمة كتبها زكى نجيب محمود . وألا نستمع إلى الأقزام الذين يفسدون علينا هذه الحياة الخصبة وذلك حين يتطاولون بالهجوم على الرجل وأفكاره . أقول هذا ما دمنا نجد فى أرض الفكر فى مصر من يفسد فيها . فلا خير فينا إذا أهملنا الرجل وأفكاره . لقد أحب الرجل حياة الفكر، حياة مصر ، ومن واجبنا أن نبادله حبًا بحب . . إنه الجبل الفكرى الشامخ ، والهرم الثابت البنيان ، والسراج المنير ، والفجر الذى يبدد قوى الظلام بحثاً عن يوم جديد ينتشر فيه النور والضياء .

وإذا كنت قد كتبت مئات الصفحات عن حياة الرائد العظيم زكى نجيب وعن كتبه(*)، فقد وجدت اليوم واجباً علىَّ أن أتحدث عن زكى نجيب الإنسان من خلال علاقتى به ، علاقة التلميذ بالأستاذ والأب الفكرى . وأقول دوماً إننى فخور لأننى عشت فى عصر زكى نجيب محمود . وفخور بأننى كنت أقرب تلاميذه إليه ... إن هذا من نعم الزمان ومن أسعد الأشياء التى ستظل محفورة فى ذاكرتى طوال رحلة الزمان .

(*) راجع ما كتبناه عن زكى نجيب محمود فى العديد من كتبنا ومن بينها : العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر . وثورة النقد فى عالم الأدب والفلسفة والسياسة . ورائد التنوير زكى نجيب محمود . . ذكرياتى الفلسفية والأدبية مع المفكر والإنسان . والكتاب التذكارى عن زكى نجيب محمود ، وقد صدر تحت إشرافنا .

رسالتان كتبهما عاطف العراقى بعد وفاة زكى نجيب محمود للاحتفال بذكراه:

١ - رسالة إلى الأستاذ عبد الفتاح البارودى (الأخبار)

٢ - رسالة إلى الأستاذ محمد صالح (الأهرام)

---

(١)

السيد الفاضل / الأستاذ عبد الفتاح البارودى تحية طيبة وبعد ..

فأعزِّيكم فى وفاة رائد التنوير فى عالمنا العربى الدكتور زكى نجيب محمود ، والذى قضى ما يقرب من سبعين عاماً من حياته التى امتدت من أول فبراير عام ١٩٠٥ م حتى التاسع من سبتمبر عام ١٩٩٣ م ، قارئاً ومفكراً ومتأملاً . ترك لنا آلاف الصفحات وعشرات الكتب ومئات الأفكار التنويرية العلمية التى تصلح أن تكون دستوراً لنا فى حياتنا الفكرية. أرجو أن تكون الإذاعة والتليفزيون على مستوى الحدث الجلل والمصاب الأليم . لقد لاحظت أن برامجنا الإعلامية حتى الآن إذا ذكرت رأياً له أو فكرة عنه ، فإنها غالباً ما تكون خاطئة لأنها تصدر عن أناس ناصبوا الدكتور زكى نجيب محمود العداء طوال حياته وسخروا من أفكاره .

إننا إذا كنا نتحدث عن القدوة وعن التنوير وعن حب مصر ، فينبغى أن نبادر إلى تكريم الرجل الذى أخلص لمصر إخلاصاً بغير حدود . يجب أن نبادله حبًّا بحب . إن سيرته الفكرية التى كتبها فى «قصة نفس» و«قصة عقل» و«حصاد السنين» آخر كتبه ، تصلح أن تكون نموذجاً للقدوة ، نموذجاً فى العطاء والتضحية .. فهل آن الأوان أن تقوم وسائلنا الإعلامية بما هو واجب عليها نحو عملاق الثقافة العربية فى عالمنا العربى المعاصر ، والذى كان يعد آخر جيل الرواد العظام . إنها رسالة يجب أن تجد صداها أكتبها فى عزاء أستاذى الذى كنت -كما تعلمون- أقرب الناس إليه وكتبت عنه مئات الصفحات التى أفخر بأننى كتبتها عن أستاذى ومعلِّمى ورائدى . من حقنا أن نفخر بأننا عشنا فى عصر زكى نجيب محمود ومن واجبنا أن نقوم بتكريمه .. وما أكثر صور التكريم.

وتفضلوا بقبول فائق احترامى وتقديرى .

عاطف العراقى

١٩٩٣/٩/٩م

(٢)

السيد الفاضل / الأستاذ محمد صالح

تحية قلبية طيبة وبعد :

إننى أدعو جميع وسائل الإعلام فى مصر إلى أن تبادر بتكريم عملاق الثقافة فى عالمنا العربى المعاصر ، وهرمنا الثقافى زكى نجيب محمود . إن ما قرأته حتى الآن فى بعض الوسائل الإعلامية وما استمعت إليه لا يبشر بخير . إشارات موجزة لا تليق بابن مصر البار . وأخطاء فى سيرة حياته الفكرية لا يصح أن نقع فيها . توجد برامج إذاعية وتليفزيونية لا حصر لها والحمد لله ، وواجب علينا أن نكون على مستوى الحدث الجلل والمصاب الفادح .

هل من المعقول أن نجد من يتحدث عنه ويلقى كمًّا من الأخطاء القصد منها التشويه ؟ وهل من المعقول أن نجد من قدموا إليه الإساءة وسخروا من فكره ولم يتعمقوا فى دراسة كتاب واحد من كتبه ، هم من يتكلمون الآن ؟!

آلاف الصفحات كتبها العملاق زكى نجيب . مئات الأفكار التى تكشف عن ذكاد حاد ونبوغ لا مثيل له . عشرات الكتب والمقالات تركها الرائد والمعلم زكى نجيب محمود. ألا تصلح هذه أن تكون مادة خصبة لمئات البرامج فى الإذاعة والتليفزيون ؟! والمهم أن نتحرك.

لقد كنت من أكثر تلاميذه اقتراباً منه وأدرك عظمة فكره ، وكرامة نفسه ، وكيف قضى ما يقرب من سبعين عاماً قارئاً وكاتباً . إن مواقفه الإنسانية وحدها يجب أن يعرفها كل أفراد الشعب العربى من مشرقه إلى مغربه . ومن المؤسف أن تطلب منى إذاعة لندن العربية كتابة سيرته والحديث عن أبرز أفكاره حتى تذاع هذا الأسبوع ، ولا أجد حتى الآن فى الإذاعة المصرية ولا التليفزيون فى مصر برنامجاً على مستوى الحدث الجلل .

إذا كانت وسائلنا الإعلامية تتحدث عن القدوة وعن حب الوطن ، فقد آن الأوان لإبراز دور آخر عملاقة مصر والعالم العربى فى مجال ريادته التنويرية ودفاعه عن العلم دفاعاً مجيداً وحديثه عن العقل أشرف ما فى الإنسان .

أشهد أن كل زائر لمصر من المفكرين الكبار كان حريصاً على أن يلتقى بالرجل ولو لدقائق معدودات ، تماماً كما يكون حريصاً على زيارة الأهرامات وأبى الهول .

توجد اثنتا عشرة حلقة تليفزيونية ، كل حلقة مدتها ساعة من الزمان ، قام بتسجيلها قبيل

وفاته ، وأشرفت عليها .. فليبادر التليفزيون إلى الحصول على نسخة منها . كما توجد عشرات البرامج الإذاعية التى تم تسجيلها معه . . فلنبادر إلى الاستفادة منها ؛ ففيها حكمة الزمان وخلاصة تجارب العملاق زكى نجيب محمود .

إنها رسالة أكتبها عن رجل ولد فى أول فبراير عام ١٩٠٥م ، وتوفى فى التاسع من سبتمبر عام ١٩٩٣م ، وقضى حياته كلها مؤمناً بمصر وريادتها الفكرية ، ينبض قلبه بحب مصر . . فلنبادله - إذن - بعد رحيله - حبًّا بحب ، وثناء بثناء ، حتى تلتقى الأرواح فى عالم الخلود .

عاطف العراقى

٩/ ٩/ ١٩٩٣م